رواية

حارة عبد الودود

محمود السيد

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : حارة عبد الودود
المؤلف : محمود محمد السيد
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٦٧٧٨ / ٢٠١٦
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 337 - 0

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلي كل عاشق

لا تحاول يا صديقي إذا وصل العشق إلى الوريد
وامض ما بقي لك من عمر أسير .

١

مـن منـا يعلـم الغيـب، كلنـا يعـرف متـى تشـرق الشـمس، أربعـون يومـاً مضـت علـى تحريـر العقـد والانتقـال إلى تلـك البـلاد البعيـدة، بـين الـبرودة الشـديدة والحـرارة الأشـد تنقـل وراء مـا يؤمّـن مسـتقبله، لمـاذا يشـعر بالقلـق ؟ ألأنهـا المـرة الأولى الـتي يغـادر فيهـا الوطـن ؟ فنـان شـهير سـبقته لوحاتـه إلى متحـف الفـن الحديـث ومهـدت لـه الطريـق لينطلـق، اسـتقبلت اتصالـه غـير مصدقـة وهـي تحـزم حقائبهـا ومعهـا الأولاد : ألهـذه الدرجـة لعـب الشـوق بقلبـه ! لم يمـر مـن الوقـت الكثير، لكنـه الشـوق، مـن القلـب للقلـب رسـول وطريـق مـن نـور، ثـلاث سـاعات والطائـرة بـين المسـافات تحلـق في سمـاء ملبـدة بالغيـوم وريـاح فبرايـر البـاردة تصـك الآذان، ومـن الطائـرة إلى السـيارة إلى بيـت لا تعرفـه اسـتأجره، بيـت يُشـعرك بسـعادة غريبـة عنـك، سـعادة بـاردة، مهمـا كنـت سـعيداً فأنـت غريـب، اشـتياقها وبـراءة الأطفـال وفرحتهـم هونـت عليهـا الكثـير، عامـاً أو بعـض عـام وتعـود إلى وطنهـا وبيتهـا وأمهـا وأبيهـا وتـراب لـه ذكـرى وحنـين لأيـام خلـت وسـنوات مضـت، مهمـا كان الفقـر في بلـدك الشـعور بالاحتـواء يبـدده، احتواهـا وعانقتـه، لكـن همـس مـن

القلق ساورها بين القلب والوجدان سرى، راحت تتأمل زوجها وهي تسحب عليه الغطاء، بين شهيق وزفير هادئ يغط في نوم عميق، اكتحلت عيناها برؤيته وكأنها تراه لأول مرة، كادت تتحول إلى عاشقة، غداً .. اليوم الحادي عشر لوصولها رغبة منه أن يمضي معها بعض الوقت، في عطلة نهاية الأسبوع ينطلق الناس إلى الحدائق ودور السينما بعد صلاة المغرب، الحرارة لا تطاق نهاراً وقبيل آذان الجمعة تأهب الناس وهو معهم توجهً إلى المسجد الكبير وبقيت داليا في بيتها تنتظر، غالبها النعاس وتناوبت عليها الأحلام والرؤى ومشاهد مقبضه تراءت لها، زحام وحشد كبير، المشهد مضطرب وصلاة وآذان وصورة زوجها تتأرجح بين عينيها، هرج ومرج وحشود كلهم من طين، لمحت في أعينهم حزن وحسرة، هبت من نومها تهتف باسمه صارخة، تدور في الأرجاء غير مصدقة تبحث عنه في غرف البيت، أين هو ؟ تذكرت : ذهب للصلاة لكنه لم يعد! لابد أن في الأمر شيء وانفتحت أبواب العين لدموع لا تعرف من أين أتت وصراخ وعويل لم يستمر طويلاً، هرعت إلى التليفون، هناك من جاء بالخبر : لابد من التوجه إلى المستشفي، بين الحياة والموت هو، أوشك الأمل أن يغادر، تعلقت عيناها بالسماء بين لهفة ورجاء وتذكرت دعوته ورغبته أن تبقى معه بعض الوقت، طمأنها الطبيب : لا داعي للقلق، أيام قليلة وتحملينه إلى حيث جاء : وطنكم

أولى بكم، لم تصدق وراحت تسأل في رجاء، شاع الخبر، مازال على قيد الحياة ومازالت تنتظر عودة الغائب، بين السماء والأرض تعلقت روحه، ينتبه حيناً ويغيب عن الوعي أحياناً حتى أصابها اليأس وتهيأت وتأهبت لكل شيء، أربعون امرأة من أهل البلد تجمعن يواسينها، صلين معها، لم يتركنها وقد بات مصير زوجها معروفاً ومازالت صغيرة في أوائل العقد الرابع، رائعة الحسن ذات الوجه الوردي والأنف الارستقراطي، علامات الحسن لم تترك في وجهها موضع إلا احتلته، وعلى الخد خال وغمازتان ورمش وحاجب يحرسان عينين عسليتين، ست الحسن، لها جسد بلون الورد يأكل قلوب النساء، عليها أن تواجه ما تأتي به الأيام، صلت مع النسوة وأحطن بها يسألن : ماذا قال الطبيب ؟ وماذا عليها أن تفعل، وماذا عن الأولاد؟ أرسلت جهة العمل مندوباً إلى المستشفي تكفّل بكل شيء ومازالت تنتظر، حالة من التردد والقلق تناوبت عليها وهي الغريبة، ماذا تفعل إذا وقع لزوجها مكروهاً ؟ لم يمت لها أحداً من قبل، تجهل طقوس الموت والمراسم، ليت الصباح يحمل أنباء مطمئنة، غداً يوم حاسم، قُضي الأمر صباحاً وهي تجلس بجوار عاصم تصلي وحولها عشرات النساء وبدموع حارة هدأ الناس من روعها لتعود بالجثمان من أبو ظبي إلى القاهرة .

الجمعة كانت حزينة بعد انتهاء مراسم الدفن والعزاء في مقابر أسرتها بناء على وصية المرحوم لتعود إلى بيت أبيها وتتأهب حارة عبد الودود لتلقي العزاء ...

٢

مـن منـا لا يؤمـن بالحـب ! مـن لا يريـد أن يكـون لـه حبيـب يشـاركه مشـاعره وطموحـه، يهـدئ جوارحـه ويحنـو عليـه، ينتظـره، لـه في القلـب مـكان بـل القلـب كلـه مكانـه، حلـم كغـيره ممـن سـبقوه بالأحـلام أن يكـون لـه بيتـاً، تـزوج أشـقاءه، اثنـان واثنتـان ليبقـى الأخـير يرعـى أمـه وأبيـه وقـد أوشـك علـى الانتهـاء مـن دراسـته، وعـبر الشـرفة اقتحمـت عينـاه، ورغمـاً عنـه تـرددت بـين الشـرفة والنافـذة تبحـث عنهـا وراء الجـدران وأطـل الشـوق مشـاركاً في البحـث، فتـاة الأحـلام والأوهـام والفـارس والخيـال وأشـياء مـن الفلكلور دارت في رأسـه، لم يكـترث بموضـوع الـزواج، عاطفـي سـيطر عليـه الحـب بشـكل مرضـي، هـو للجمـال عاشـق، أسـلمته فكرتـه عـن النسـاء أنهـن نـوع مـن الملائكـة، أذابـت قلبـه الرقـة والعذوبـة ودعـاء أمـه صبـاح مسـاء أن تـراه في بيتـه فيجيبهـا سـاخراً : بعـد عشـرين عامـاً مـن الآن، إن شـاء اللّه، الحقيقـة لم يكـن مبالغـاً وهـو لم يجـاوز بعـد الخامسـة والعشـرين : تُـرى مـن يعيـش حتـى ذلـك اليـوم .

أطلق لقلبه العنان ولعقله الخيال حتى يختار، لم يبق إلا هو دون زواج، كم تمنى أن يستقر في عمل بعد تخرجه في الجامعة، في ذلك الحي الشعبي أخبار الجيران متداولة، شعر أنه مراقب ومتابع من قبل آخرين، تسأل أعينهم في لهفة : ماذا يعمل الآن ؟ حظيت أسرته باحترام أهل الحارة، أبوه يعمل بالصحافة والأسرة على قدر من الثقافة حريصة على اقتناء الكتب والمجلات، كل من يسأل عن خبر يقصد بيته، آخر بيت في الحارة في مواجهة بيت عبد الودود، بناه بعد نزوحه من قريته قبل ثلاثين عاماً، انزعج وأسرته حين أطل عليهم مستأجر جديد للبيت المواجه، اعتراه القلق وبمرور الوقت اعتاد الأمر فلديه من البنات ثلاث مازلن يدرسن، الكبرى تدرس الطب أما الصغرى فذات لون أصفر أسيوية الملامح، أجملهن الوسطي، مال قلبه لها واستسلم بلا قيد أو شرط مكتفياً برؤيتها، خجول يملأه الحب ويروح منه الكلام إلى جهة غير معلومة، لا يعرف المواجهة، إذ ماذا يقول لها، قلبه يصرخ متجاوزاً التلميح دون تصريح وقد استقر به الحال للعمل بالصحافة محققاً نجاحاً ملحوظاً بعقد تحت التمرين ليثبت تفوقاً أهله للظهور في عدد من البرامج التليفزيونية شاهدها الأهل والجيران، لكن الرياح تسير وفق ما تريد، من بين شقيقاتها انتبهت وراحت عيناها تتابع الفتى الوسيم سليم، مالت إليه ميل المراهقات في صمت تجاوزته أحياناً بطلب بعض

المجلات والصحف و التودد إلى أمه وزيارتها، وبين إعجاب وشوق وسؤال وأمنيات طيبة اشتعل الحب في قلبه، ود لو حدث الناس جميعاً، حدث أمه وشقيقاته وزوجة أخيه التي أصرت على طلب يدها، وفي جلسة ودودة أجابت الأم: مازالت داليا صغيرة تدرس الفنون الجميلة، لا تفكر في الزواج الآن، الخطّاب كثر، لا تريد هذا ولا ذاك، لم تدر ماذا كان وقع الكلام على قلبه، كيف ! كرامته أبت عليه أن يضع نفسه موضع مقارنة، لا حب بلا كرامة، غلالة من الحزن احتضنته، بين الصحافة والأدب تنقل ورئيسة التحرير لا تريد تجديد العقد أبداً، تكره من تقوده رأسه وقدماه والجميع خضوع، لم يرق الأمر لها رغم تفوقه ليعود مثقلاً بالهموم، الجيران والأهل عرفوه صحفياً ! إلى أين يذهب ؟ ملأت صوره برامج التليفزيون وعشرات المقالات في مجالات ومجلات مختلفة في زمن قياسي، أرقه كيف يواجه أسرته ؟ كيف يكسر الحلم فيهم بعد أن انكسر داخله، حزن أمه فاق الحزن إلى حد المرض حتى تدهورت حالتها ومازالت تدعو الله أن يرزقه بابنة الحلال، توارى خلف أحزانه : ماذا يقول الناس عنه، كيف يواجههم؟ ماذا تقول بنت الجيران ؟ تلك التي أحبها في صمت وجنون، لا يبوح إلا لنفسه وشقيقته الصغرى، كيف لم تدرك ما آل إليه حاله؟ لقد بدأت المشكلة والقصة تركت في نفسه غصة، ترك العمل بالتدريس برغبته وكراهية لتلك المهنة، مهنة شريفة

تمارس بأساليب غير شريفة، كرهها من أعماقه ليذهب إلى الصحافة، مهنة ضمت من لا أخلاق لهم، لم ينس يوم أن جلس في جمع حتى ساعة متأخرة من الليل، عدد من الرسامين جمعهم طعام وشراب وفي جو تسوده المودة، تحدث عن أحلامه في أن يكون كاتباً، حديث من القلب باسماً متوعداً عن حب ومودة إنه إذا ما تم تعيينه سيتحدى الدنيا كلها، بل العالم أجمع : عليكم بالصبر، لكن ما حدث كان أغرب من الخيال ففي الاجتماع الشهري لأسرة التحرير أخذت عليه أمنياته إذ كيف يتفوه بعبارة كهذه، وماذا يمكن أن يفعل : احذر مازال اسمك بالقلم الرصاص، انتبه لما تقول حرصاً على مستقبلك والأغرب أن هذه العبارة وقفت حائلاً في طريق تعيينه ليتم إنهاء التعاقد معه ليعود تصاحبه الحيرة لا يعرف كيف يواجه الجيران وتساءلت الأعين في مكر : ما باله لا يستقر في عمل ولا يعمّر في مكان، كيف سيتزوج ويكون له بيتاً ؟ كيف واتته الجرأة !

تساؤلات ذات رذاذ أصاب عقله دفعه للخروج كل صباح باحثاً عن التوازن النفسي، من كان يصدق أنه سيترك عمله! امرأة واحدة فقط تنبأت له بما حدث، تنبأت أيضاً بما هو أخطر بصورة عجيبة وكأنها تقرأ في كتاب .

في التاسعة صباح كل يوم وبعد أن يتناول كوباً من الشاي على استحياء يرتدي ملابسه بسرعة وكأنه على ميعاد، يطالع جريدة الصباح بادئاً بالإعلانات، هاله ما رأى :

مندوب توزيع لشركة لحوم يجيد الانجليزية، حارس أمن ووظائف أخرى واهية لا تفتح بيتاً ولا تغلقه ليستمر به الحال ويتعالى الهمس إلى سؤال إلى كلمات موجعة، لماذا ترك عمله ؟ ابنة الجيران تقدمت في دراستها، مرات كثيرة يثار الكلام عن خطبتها لفلان أو زواج شقيقتها الكبرى، لم يبق إلا حبيبته دون زواج، حدثته نفسه أنها ستكون له ولكن كيف ؟ واصل رحلة البحث، ركب مع الراكبين واحد من إحدى عشر بين رجل وامرأة انطلقت بهم السيارة حتى انتهت إلى أحد الشوارع الرئيسية القريب من وسط القاهرة، هبط من السيارة ليحتل مكانه على أقرب محطة أتوبيس، أي أتوبيس لا يهم رقمه أو وجهته ! يريد قتل الوقت وكأنه مازال مستمراً في العمل، كذبة كبيرة حاول أن يصدقها، همسات الجيران تؤلمه، إنسان هو بدرجة فنان امتلأ وجدانه ألما على ما آل إليه حاله وقد قارب الثلاثين، ومن محطة إلى محطة ومن شارع لآخر تنقل بين الجلوس والسير على الأقدام، أشعة الشمس ترعاه منتظراً المجهول، كم من الحافلات مرت أمامه ويعاود الإطلال برأسه إلى رقم الأتوبيس القادم ثم يتابع ما قبله في أسى وكأنه مقصده، وبشكل لا إرادي راح يوهم نفسه أنه منتظراً للذهاب إلى عمله أو عائدً إلى بيته بعد رحلة ضياع وهمية تبدأ في التاسعة وحتى الثانية والنصف ليعود مكفهر الوجه يلمحه من يلمحه قادماً وفي يده جريدة فيظن به الظنون،

ويمر الوقت بين شتات نفس وأمل ضائع ورغبة حقيقية في الحياة يتم وأدها، وكلما استبد به الأسى راح يدق على أبواب المستقبل، ملك .. عرافة الهرم، رائعة الجمال، أرملة ولها ابنة في ريعان الشباب فاقت أمها جمالاً، جلست بين سحب الدخان والفنجان وما تيسر من آيات الله تتأمل ما تحمله الأيام له ولأمثاله من المعذبين، جلس منها مجلس المريد وهى تقرأ وقبل أن تقرأ دار حوار :

— ألم أقل لك .. كلمتي هي العليا ...

— بدأت أخاف منك ..

حدجته بنظرة متفحصة اخترقت أعماقه :

— تركت ما كنت تحلم به ..أليس كذلك ؟

— كذب المنجمون ولو صدقوا ..

— أنا لا أعرف الكذب، انظر إلى المرآة لترى الدليل .

في ذلك الجو القاتم والحجرة الرطبة جلست وكأنها جاءت في مهمة عاجلة تخبره عما كُتب عنه من وراء الغيب والفتى يجلس في رهبة ورائحة البخور تتداعى من الأرجاء، نوع غريب من البخور اخترق مسامه وعينه في رحلة بحثاً عن الراحة، ملامح المرأة توحي بالسكينة وشيء من الأمان، تملك القدرة على الغوص بين أقطار السماوات والأرض، قدرة ورثتها عن أبيها العراف القديم، عاش ما يقرب من

قـرن لم يـبرح ورشـة النسـيج، عـرف كيـف ينسـج مـن الحلـم حقيقـة علـى شـكل مفـردات، أحـرف وكلمـات صاغهـا ملامـح أحـداث ورؤى وتاريـخ قـادم متصـل بمـا قبلـه :

— يومها لم أصدق نفسي وتمنيت أن تكوني كاذبة .

— لمـاذا اكـذب ؟ مـن يكـذب يسـهل عليـه فعـل أي شـيء، مـن أصغـر الذنـوب إلى أعظـم الكبائـر .

— لولا الحرام لصدقتك ..

— وهل أتقاض منك أجراً ؟

— العفو .. أنا تحت أمرك ..

— فقـدت حاضـرك ولكـن اطمئـن، لـن تفقـد مسـتقبلك، تتـزوج مـن النسـاء ثـلاث .

قهقه حتى تراجع إلى الخلف من فرط الضحك ,

— ليتها نصف امرأة !

واصلت العرافة كلامها دون أن تعبأ بضحكاته :

— بيضاء من غير سوء، ليتها كانت بكراً..

— ومـا الفـرق ؟ المهـم أن أحبهـا وتحبـني ويحـب ناقتها بعيري

— ماذا تقول !

— لا ..لا شيء، أقصد أن أحبها فقط .

– هناك أشياء سأتكلم عنها في حينها ..

– وما العمل إذن ؟

– العمل بعد نقطتين ..شهر أو شهرين ..سنة أو سنتين، في عتبة حكومة، قسم شرطة أو محكمة

– أعوذ بالله ..

جو من الرهبة اجتاحه، لا يعرف سر هذه المرأة ! أوجدت طريقاً بينها وبين السماء عبر الجان، أليس الجان موجوداً ؟ يخبرها بما كان وما سوف يكون، هي تجزم بل تقسم على صحة ما تقول وصوت قارئ القرآن يلف المكان، مجرد صوت لا صدى له في قلبها ولما سألها أجابت : هذا الصوت يملأني ..والأعمال بالنيات كما ترى، التفتت إليه :

– ما رأيك في آمال ؟

– من ؟

– ابنتي ..تمنيت أن أكون حماتك ..

– شرف لي ..

– أمال أبو الفضل ابنتي من زوجي الأول توفاه الله بعد أن طلقني ..أرأيت ! من يجور على لا يكسب أبداً .

– كلنا أموات أولاد أموات .

— لكن الله جعل لكل شيء سبباً ..

وحتى لا يتمادى في المجادلة هز رأسه بالإيجاب .

— لم أر ابنتك من قبل ؟

— على وشك الوصول، عروس، تدرس في كلية الآداب .

— كل شيء نصيب ..

— افتح لك الكوتشينة أم اقرأ الكف ؟

بسط كفه وراحت تقرأ حتى انتابها حالة من الصمت العميق .

— سيُطرق الباب بعد دقيقتين .

ساد صمت تبدد على طرقات لتدخل عروس غاية في الرقة تختلف عن العرافة كل الاختلاف، هب من فوره يصافحها، اقتربت منه وجلست على بعد مساحة ود تكفي عوالم أخرى، في عينيها خيال توارت خلفه رغبات أعلنت عنها الشفاه وأهداب تترد في ألق وقلق :

— علمت أنك صحفي ..

— كنت ..

— والآن ؟

— مازلت أبحث عن عمل ..وأنت .... طالبة ؟

هزت رأسها بالإيجاب ...

— آه ..لدي مشكلة أردت أن أشركك معي .

نظر إليها بعين متسائلة :

— خطيبي طارق ..لم أحب رجلاً مثله ولن أحب .

— وما المشكلة ؟

— المشكلة عنده، هو الذي تمرد بعد أن أسلمت له قيادي واستسلمت له .

— كيف ؟

— لا يذهب خيالك بعيداً .

— إلى أي حد ؟

— إلى أبعد مدى إلا قليلاً .

تكررت الزيارات ودعته العرافة إلى الغذاء، تعرف ابنتها جيداً، لا تستحق الغدر ممن لا اسم له، طارق لعنة الله عليه، استراح سليم لآمال وتمنى الارتباط بها وراح يسأل ويلح في السؤال :

— عرفت أنه اختطفك يومين متتاليين .

— أنا ؟ طارق خطفني !

— هكذا سمعت ..

— سمعك ثقيل يا أستاذ ...خرجت معه بإرادتي .

— إلى أين ؟

— أقمنا في الحسين ....على المقاهي ..

— يومان على المقاهي ؟ وأين تنامين !

— على المقهى أيضاً ..أتريد الصراحة، لا استطيع البوح أكثر من ذلك .

— وماذا بعد ؟

— لا شيء ..

— إلى أي حد وصلت العلاقة بينكما ؟

— جسدي وكل أعضائي تشتاق إليه ..

— مازلت عذراء ؟ آمال .. تكلمي .

— طبعاً ..أنا بنت ..مازلت بكراً

٣

استراح سليم ..... وكأن الأهم أن تحافظ على بكارتها، ساذج في عواطفه، قروي لم ينضج بعد ليستمر الحوار بينهما في بيت العرافة أو عبر التليفون ...

مازال يتردد بين بيته وبين محطات الأتوبيس والترام في رحلة البحث عن عمل، يبني حياته مع ابنة الجيران في السنة الثالثة ولم يبق إلا عام على التخرج، ترفض كل من تقدم لها غريب أو قريب أو عابر سبيل وهم كثر، يتبعها الواحد منهم من باب الكلية حتى باب الحارة، يسأل ويتحرى ولا يجد قبولاً، راح يتبعها من خلف النافذة لعله يلمحها تعلق الملابس على حبال الوصل في شرفتها، لمحها مراراً وقد ازدادت جمالاً صاحبة الوجه البريء، أبت عليه كرامته أن يعيد طلبه، يكفيه ما لحقه من ألم في المرة الأولى ومازال يعاني تشابه الأيام، الأحد مثل الجمعة لا فرق بين الأربعاء وبين ما قبله حتى كان السبت وبينما يطالع الإعلانات شد انتباهه إعلان يطلب موظفين لمحكمة الاستئناف، شعر بشيء من الراحة وانطلق يحمل أوراقه

علـى وعـد أن يخـبروه بموعـد الاختبـار، لم ينـس يومـاً أنـه صحفـي وربمـا مشـروع شـخصية كبـيرة، كثـير مـن المشـروعات لم تخـرج إلى النـور بعـد وظلـت حبيسـة القلـب والوجـدان، حـب مـا تعمـل حتـى تعمـل مـا تحـب، كلمـة لا يمـل مـن تكرارهـا، هاهـو علـى أعتـاب عمـل جديـد .

مـازال في انتظـار موعـد الاختبـار، يداعبـه الأمـل والحنـين إلى ابنـة العرافـة، لمـاذا لا تكـون لـه ؟ لمـاذا هـو مـن دون خلـق اللّه ليسـت لـه علاقـات ! منطقـة العواطـف عنـده مليئـة بالفراغـات، فضـاء واسـع رحيـب يشـعره بالتيـه ممتلـئ بظـلال النسـاء، خصـر نحيـل وأرداف وخصلـة شـعر يداعبهـا النسـيم، يقـدس الجمـال ويعشـقه، لم تكـن آمـال سـاحرة لكنهـا أنوثـة تمشـي علـى قدمـين وتكسـر حـدة الملـل .

هنـاك جلـس يسـتطلع الغيب يسـأل ويستفسـر وهـى تطمئنه، ليتهـا تعـرف موعـد الاختبـار، ألّـح لهـا عـن ابنتهـا فأجابـت بالرفـض :

— أتمـني أن تكـون لـك، عرضـت عليهـا الأمـر فرفضـت ومعهـا كل الحـق، كيـف تتـزوج عاطـلاً !

— عندك حق .

تواصلـت رحلـة البحـث ولمـا طـال الانتظـار وقبـل أن يصيبـه الملـل راح يسـأل ليفاجـأ بإجابـة غـير متوقعـة : بالأمـس كان

الاختبار، اسقط في يده وراح يقطع المسافة سيراً على الأقدام حتى العباسية، ذاهل غير مصدق قاصداً رجل غريب عن عالمنا، عالم يشار إليه بالبنان، تعرف عليه يوم أن كان حارساً للأمن، دكتور ماجد اليمني رئيس قسم أبحاث الفيروسات وقلب طيب جلس في مواجهته متأملاً :

— ماذا بك ؟

— لا شيء ..أشعر أنني مستهدف ..

مد يده باسماً مربتاً على كتفه :

— وحد الله ..... .تركت العمل ؟

— لا ..مازلت أعمل بقالاً في سوبر ماركت ..

— تركت الصحافة ! خسارة ..

— لم أتركها برغبتي، هم الذين تركوني .

— ماذا يؤرقك ؟

— امتحاني كان بالأمس !

— اترك تليفونك وكن على اتصال، زوج الدكتورة سالمة بمكتب الوزير، لا داعي للقلق .

دمعت عيناه وهو يغادر مصافحاً، لا يريد أن يفارقه، هذا الرجل ترك في قلبه ذكرى لن تنمحي، تسلم سليم عمله

بمحكمة شمال القاهرة بعد أسبوعين واستغرقه العمل لكن اسم ماجد اليمني ظل عالقاً في قلبه ووجدانه وعلامة فارقة في حياته وقد أظله الحلم القديم، أن يكون له بيت وزوجة، الفرصة مهيأة، بنت الجيران داليا مازال حبها يملأ قلبه، تغيرت ملامحه بعد أن غير مظهره البائس، شيء ما بات يؤرقه، تردد بعض الرجال ومعهم امرأة على بيت عبد الودود وقد انتهت ابنته من دراستها : ما بال هؤلاء ؟ توقفت سيارة، أعقبتها أخرى ورجال كثر ونساء فاق عددهم عشرة يحملون ما يشبه الهدايا، ارتج قلبه غير مصدق !

ترى من يكون ؟ فكر أن يسأل وقبل السؤال أتاه الجواب، رجل في ملابس أزهرية يحمل دفتراً مستطيلاً، ما بين صلاة المغرب والعشاء جاء، هذا البيت الغريب لا يبدو منه مظهراً للفرح أو الحزن وتساءل الجيران عما يجري، عادات واطر وضعوا أنفسهم فيها والتزموا بها وجاء من يبارك ويدعو الله أن يتمم بخير، أي خير هذا الذي يتحدثون عنه ؟ ماذا حدث ومن هذا الرجل بدفتره وملابسه ! تسارعت دقات قلبه وقد تناهى إلى سمعه أن ابنة الشيخ عبد الودود قد خطبت وكأن الأمر عادي ! لا يمكن أن يكون كذلك، وقع الخبر قاسياً أسلمه إلى حال من اللامبالاة، وماذا تعني خطبتها أو حتى زواجها، هل تأثرت روحه ؟ أبداً لم تتأثر لكن قلبه امتلأ بالحزن ولفه الصمت، لم يكن الأمر غريباً

فبينه وبين الفرح حجاب ونقاب وجدار، بين أروقة المحاكم تنقل بين القضايا والدعاوى ومراكز الاحتجاز، تعلق قلبه أكثر وهى تنتقل إلى بيت زوجها القريب من بيت أسرتها، لم تنقطع الصلة بينها وبين شقيقته بل راحت تسأل عن الحال والأحوال وكذلك أمها، لم تكف عن السؤال عما يمنعه من الزواج، لم تدر ما فعلته ابنتها، لكنه لم يتكلم ولم يبح ولم يصرح أو يلمح، صنف غريب من الرجال يحب في صمت وقوة، هذا النوع عاشق رقيق المشاعر، تجنب أن تقع عيناه في عين داليا، ويمضي من العمر سنوات ويتقدم في عمله و من وراء وراء يحاول أن يتقدم لخطبة هذه أو تلك فلا قلبه طاوعه ولا قادته قدماه .

لم تنقطع الصلة بين سليم وبين العرافة حتى كان يوم وعلى غير ميعاد انتفض من فوره على طرقات متحرشة بباب الشقة لينفتح الباب عن أمال وأمها يعرضون عليه الأمر، تقدم لابنتها طول بعرض بارتفاع، متساوي الساقين، أبيض يسر الناظرين واسمه نبيل، يعمل بمكتب الإرشاد السياحي، رحبت به العرافة زوجاً لابنتها، وقع سليم في حيرة عبرت عنها عيناه : هل جاءت تدعوه للفرح ؟ التفتت إليه :

— جئت إلى بيتك بإرادتي وقد تقدم لي من تتمناه أي فتاة لكني أريدك أنت ..

– كوني كما أنت وسأبقى كما أنا ..

ما أشبه الليلة بالبارحة، الموقف نفسه تكرر مع ابنة الشيخ حين تقدم إليها قبل سنوات واحتارت ورفضت هذا وذاك، لم يكن هو إلا ذاك الفتي العنيد، كرامته فوق كل شيء ولا يمكن أن يضع نفسه موضع منافسة أو اختيار ولو أدى الأمر إلى نهايته لتنصرف العرافة وابنتها وشيء ما يوغر صدرها تجاهه بعد أن كسر قلب ابنتها، آمال تثق فيه ولا تحبه ولا تطمئن للوافد الجديد، بمرور الوقت علم من العرافة أن ابنتها قد تزوجت وخلال أشهر قليلة ستكون أما: ، لم يمنعه زواج آمال من استمرار العلاقة بينه وبين العرافة كلما استبد به الأسى راح يفتش ويسأل النجوم عن أخباره؟ هل يصدق هذه المرأة، لقد صدقت، ترك عمله بالصحافة ويعمل الآن بالمحكمة، عتبة حكومة كما قالت! من أدراها؟ حاول أن ينال رضاها ببعض الهدايا ولوازم النساء مواصلاً رحلته مرغماً ومحاولاً أن يتقدم لهذه أو تلك، كيف يُقدم على خطوة كهذه وحبال الشوق مازالت ممتدة إلى أعلى، شيء يحدثه أنه لابد من اللقاء، يميل برأسه متطلعاً إلى شرفتها وقد زُينت جدرانها بلوحات جميلة من صنعها، فنانة بالفطرة وبالدراسة أيضاً، لها عطر ومذاق خاص يختلف عن شقيقاتها، إذا سارت تشعرك أن الحارة والحي قد تبدل وناله من الرقي ما ناله وما إن تبتعد

خطوات حتى يعود سيرته الأولى، يشتاق إليها متطلعاً إلى زيارتها لأسرتها، حريص على رؤيتها من وراء حجاب، مازال يقيم في البيت المواجه لبيت عبد الودود يرعى أسرته ويتلقى دعوات أمه أن يرزقه الله ببنت الحلال قبل أن تموت، لم يتصور أن تموت أمه فلم يمت في أسرته أحداً من قبل، قد تمرض لكنها أبداً لن تموت ومازالت ابنة الشيخ في بيتها ترعى زوجها وأولادها، فنان مثلها وأستاذها، علمها الكثير في الكلية وفي حياتها معه، فكر أن يزيد دخل أسرته، شجعته حيث تعاقد الدكتور عاصم على العمل بإحدى دول الخليج ولأول مرة يتأهب لفراق، أعدت له حقيبة مملوءة بالأوراق والمشاعر وكل ما يلزم للاقتراب والابتعاد، دنا منها وتحابا أكثر من أي وقت مضى حتى كان يوم الارتحال، فنان بارع لوحاته مسجلة باسمه وكذلك ابنة عبد الودود اسمها منقوش على جدار القلب، وعلى أرض المطار هبطت الطائرة ومنها انطلق إلى سكنه الجديد ومنه إلى مقر عمله صباح اليوم التالي، لم يتحمل وجع البعاد، أربعون يوماً مضت على مغادرته، شيء ما يحول بينه وبين الحياة على هذه الأرض، كل شيء متاح، ليس هناك ما يؤرقه إلا الحنين إلى وطنه الأول والثاني، حنينه إلى زوجته وأولاده، اتصل يدعوهم للإقامة بعض الوقت ..

عانقته وكأنها تراه لأول مرة بعد غياب ألف عام، اليوم كان الخميس وصباح الجمعة جمعهم طعام الإفطار وانطلق الشيخ يرتل القرآن لإقامة شعائر صلاة الجمعة، استسلمت لغفوة أطاحت بها بعيداً، ربما كان إرهاق، وما بين النوم واليقظة لم تعرف كم من الوقت مر وقد تراوحت الألوان على وجهها وتغيرت ملامحها بين الرعب والفزع والحيرة والقلق، مشاعر شتى علت وجهها وما يشبه الاختناق وصوت ارتطام هبت على إثره تصرخ وتنادي في لهفة تهتف باسم زوجها ليرتفع صوتها ليصل إلى الجيران، تجمعوا، لم يجدوا شيئاً إلا رنين تليفون متواصل أن لابد من الانتقال إلى المستشفى، عاصم بين الحياة والموت، طمأنها الطبيب أن لا داعي للحزن، أيام قليلة وتحملينه إلى بلده، وطنكم أولى بكم ..

رافقت جثمان زوجها لتعود إلى بيت أُسرتها تتلقى العزاء، حارة عبد الودود أظلتها غيمة وصمت مريب وحركة غير متزنة تشي بأشياء لاحظها سليم بينما هو عائد من عمله ارتقى السلم المتهالك وراح يطمئن على أبوه ويسأله :

— ما بال اليوم كئيباً !

— البقاء لله، توفي زوج داليا في حادث سيارة، وجاءت تحمله بالأمس .

حـزن مشـوب بالراحـة تنـاوب عليـه، إحسـاس غريـب وكأن المرحـوم كان حائـلاً بينـه وبينهـا، العـزاء واجـب، ليتهـا تكـون هنـاك، يبـدو أنهـا تنهـي بعـض الأوراق، تعويضـات ومعـاش ومـدارس الأولاد، الشـيخ عبـد الـودود ترامـى صوتـه يرتـل القـرآن ونسـاء اتشـحن بالسـواد، المـرة الأولى الـتي يصعـد فيهـا سـليم إلى بيـت حبيبتـه، تذكـر يـوم حدثتهـا زوجـة أخيـه في أمـر الخطوبـة، لم تُحسـم الأمـر يومهـا واسـتبعدت فكـرة الارتبـاط ذاتهـا مـن الأول والثانـي، رفـض أن يكـون موضـع مفاضلـة أو مسـاومة أو اختيـار مفضـلاً الانسـحاب لتتـزوج مـن الدكتـور عاصـم، لم ينـس الواقعـة رغـم مـرور عشـر سـنوات وقـد أدرك أن المـرأة تحـب أن تعيـش في دور الفريسـة وعلـى الرجـل أن يقتنصهـا حتـى لـو لم تكـن تحبـه، لا تريـد العشـق مـن علـى البعـد، تهـوى مـن يعذبهـا لا مـن تعذبـه، هكـذا هـي المـرأة، تمنـى أن تكـون في البيـت ليضـع يدهـا في يـده ويشـد عليهـا معزيـاً، لم يكـن القـرار نابعـاً مـن قلبـه بقـدر مـا كان تأديـة واجـب وقـد تحقـق لـه مـا كان بالأمـس حلمـاً، أن يضـع يـده في يـد الشـيخ عبـد الـودود !

انتهـى العـزاء ولم ينتـه، أيـام امتـدت لسـنوات ثـلاث، الملابـس السـوداء متراصـة في شـرفة البيـت تطالـع الشـارد والـوارد، حـارة عبـد الـودود لهـا في القلـب مـكان وفي الوجـدان ذكـرى لم تنقطـع ومازالـت داليـا تـتردد بـين الإقامـة في بيتهـا وبيـت أسـرتها أمـا أمهـا فراحـت تبحـث لسـليم عـن عـروس

تناسبه، حرام أن يبقى بلا زواج والعمر يمضي، وما بين عروس وأخرى طبيبة وأحياناً موظفة عرض عليها سليم أن تزوجه ابنتها :

– كيف تأتين لي بالعرائس وعندك داليا !

– ليست بمفردها، لديها من الأولاد اثنين .

– ولو كان لها من الأولاد عشر، اعرضي عليها الأمر ..

وفي انتظار الرد راح ينقل عينيه بين باب البيت وبين شرفتها لعلها ترضى ..

٤

اجتمعت الأسرة تنظر في زواج أصغر أبنائها، في الخامسة والثلاثين، أمضى عمره بين الدراسة والعمل وشوارع السيدة زينب، أم العواجز تجبر كل عاجز، في شارع زين العابدين التحق بمدرسة الأمل الابتدائية تسابقه أحلامه، من شمال الصعيد نزحت العائلة إلى القاهرة في فترة مراوغة واكبت ثورة يوليو ٥٢، يوم المولد يتجمع خلق كثير يملأ الأزقة والحواري، زاحم الرجال النسوة وقد جئن بالملاية اللف، الجميع التف حول الحاوي وبائع الترمس وعربة النيشان والبنادق الرش، ترش الملح ما ينزل، نافست الرؤوس عدد النجوم، نساء وأطفال وشيوخ كلها حمّالة أوجه، منهم البريء ومنهم من دون ذلك والنفس أمارة بالسوء، سوق كبير يرتع فيه النسوة، مر الابن الأصغر بكل أرجاء الحي بين المدرسة والجامعة تنقل حتى تخرّج واليوم اجتمعت الأسرة للنظر في أمر زواجه بعد أن تقدم لأكثر من واحدة، ورود وفراشات وأزهار، لم يتقن دور الدبور، كلما حط على زهرة اهتزت وألقت به بعيداً، لم يكن وسيماً، متوسط الطول اسطواني الشكل له عينان ضيقتان وأسنان ذات فواصل وأنف

يطل من عليائه، شيء من الغرور سيطر عليه، أي بنت يصلح لها، هكذا ورث عن أسرته طباع حالت دون ارتباطه بسهولة، الأمر الذي اجتمعت الأسرة من أجله، توفي أبوه منذ زمان بعيد ولم يبق إلا الأم وشقيقتين، سلوى في العقد السادس دون زواج أو طلاق أو حتى علاقة محرمة أما سناء فقد تزوجت بحيلة أو بأخرى بمن يكبرها بربع قرن وبقي صاحبنا يضرب كفاً بكف : من تجرؤ على رفضه ؟ مؤكد أصابها مس ! استقرت الأسرة على ابنة الحاجة نجية ولكن لابد من استشارة ابنتها .

لم تبحث ناهد عن الزواج قدر بحثها عن الحب، الزواج بالنسبة لها ضروري، يقلقها أن ترى صديقاتها قد تزوجن وأنجبن، من حق كل صديقة أن تغار على زوجها، شعرت بذلك وخففت من زيارتها لهن في انتظار ما تقدمه الأيام، شيء ما يؤرقها كلما طاف بخاطرها موضوع الزواج، ماذا تفعل ؟ وماذا تفعل البنات ! ترى هل يحبها ؟ هل يقدر موقفها، هل تصارحه بمكنون فؤادها وتبوح بسرها، ذلك السر الذي أرقها عشرون عاماً، لا تجرؤ على البوح به حتى لأُمها، اقتربت منها هامسة :

— مبروك ..

— على ماذا ؟ الحذاء ليس بجديد ! شريته منذ شهرين ..

— الله يجازي شيطانك .. عريس جديد .

– وهل هناك قديم ! ما اسمه ؟

– سيأتي لزيارتنا الليلة ..

لم يخفف كلام الأم ما استقر في وجدان ابنتها، قلق من الزواج ومن العريس، كيف تحبه وهي لا تعرفه، راحت تبتهل أن تعيش معه أو على الأقل تكن له مشاعر محايدة .

مالت الشمس نحو المغيب تلقي بأشعتها الواهية على ستائر غرفة النوم ومازالت تنتظر وبعين قلقة ترددت بين النافذة والشرفة، وفيما هي بين هذا وذاك ترامى إلى أسماعها هرج ومرج وما يشبه الضحكات وطرقات ناطقة تجاوزت حدود الهمس إلى الفرح، هرولت مسرعة تعيد ترتيب الأشياء فالشقة ضيقة وعليها أن تحسب خطواتها وفق قواعد معينة وإلا تعرضت لحادث أو أكثر، عدّلت من وضع الكراسي والطاولة وتوالى توافد الزائرين على استحياء بين أطباق وأياد متقاطعة ليبدأ حوار انتهى بقراءة الفاتحة ووعد وميعاد، الشبكة والشقة موجودة، تأملته وراح يرمقها من طرف خفي وقد فُتن بها، بركان من الفكر أطاح برأسها وفيض من الأسئلة : هل تقبله ؟ تصارحه أم تطارحه الغرام حتى يهيم بها عشقاً فيسهل إقناعه ! إقناعه بماذا ! هل أخطأت ؟ أقسمت أنها لم تخطيء يوماً لكنها الظروف التي يمكن أن تتعرض لها أي طفلة صغيرة في غفلة من الأسرة والضمير وتساءلت : ماذا تقول له ؟ كيف وهي التي لم تُسر

لأُمها، لم يكن أمامها إلا الموافقة حتى حين وعليها من الآن أن تتدبر أمرها فراحت تطيل الأمد وتماطل وتسوّف وترجئ أكثر من موعد لمزيد من التعارف ويتواصل اللقاء بينهما في حديقة النادي :

— لا أعرف كيف عرفت طريقي إليك، لولا أن رأيتك مع الحاجة في العمل ..

— تكلم .. وماذا بعد ..ماذا حدث ؟

شعر صلاح ببعض الحرج وراح يتمتم :

— لا .. لا شيء ..هل أغضبتك ؟ حقك على، انتهيت من تشطيب الشقة ..

— انتظر قليلاً، بضعة أشهر حتى أُعد بعض لوازم الفرح، لم نتعارف إلا منذ وقت قريب ..

— سأنتظرك العمر كله ..

خوفها من نوع خاص، لم تنس ذلك اليوم وهى لم تزل بعد في السادسة، لا تعرف ماذا حدث على وجه التحديد لكنها تعرف الجاني، ملامحه مازالت عالقة في الذاكرة، تتراءى لها بين النوم واليقظة، في خيالها وأحلامها ورؤاها أحالت حياتها إلى جحيم، من يسمع منها ومن يفهم يدرك مدى براءتها، لم تجرؤ على البوح ولا حتى لشقيقتها، لم

يبق أمامها إلا خالتها، قريبة من عمرها ومن قلبها، لابد أن تحمل بعضاً مما يؤرقها ربما وجدت حلاً بحكم خبرتها، قد يمر الأمر مرور الكرام وقد تكون له نتائج تسيء إلى العائلة بأكملها، وحتى يحين الحين راحت تراوغ في تحديد موعد الزواج وقد زاد ضغط الأسرة وصلاح في حيرة : لابد من وضع الأمور في نصابها، من يقبل وضع كهذا على حافة الهاوية، يمكن أن تفسخ الخطوبة في أي وقت ولابد من وضع حد، أظلته سحب المخاوف بعد أن تسلمت عملها في أحد الوزارات ربما صادفت آخر وتخلت عنه مما دعا الأسرة للاجتماع للنظر في عقد القرآن، إما أن يتم الزواج أو على الأقل عقد القران وإما أن نفترق بالمعروف، هكذا قررت الأم وانصاع الجميع لها، الشقيقة الكبرى سلوى على شفا حفرة من الستين، مر عليها قطار الزواج دون إصابة واحدة ولا حتى خدش، لم تكن سعيدة، تمنت لو مر عليها وأراحها من عذاب الجسد، مصدر المتعة والعذاب معاً، تفتح عينيها مرغمة على واقع مؤلم مرير، في انتظار أن يأتي معذبها، تُسلم له قيادها وتفضي إليه بما يؤرقها، طيبة القلب كانت، شرسة الأنوثة، تُرى من صاحب الحظ التعيس ؟ ليت أمه لم تلده على أن يكون من نصيبها، لم ترض عن موقف ناهد من شقيقها ومراوغتها :

— البنات يملأن الشوارع والطرقات بلا زواج !

– وهل نزوج أخوك من الشارع ! ناهد من أسرة طيبة لكنها كأي بنت يعتريها الخوف .

صرخت سلوى في حسرة وقد مدت راحتيها محركة إصبع الوسطي حركات متتابعة استوحتها من الليل :

– خوف ؟ هذا كهن بنات أعرفه جيداً ولا أطيقه، صلاح: كن رجلاً ..

تنحنح صلاح وكأن شيئاً اعترض حلقه وراح يسعل ويفرك شاربه بشكل مفتعل :

– لك ما رأيت، لن أصبر بعد اليوم، سأمر عليهم الليلة ولكل حادث حديث .

في حفل عائلي أمسك صلاح بدبلة الزواج، دفعها برفق لما بعد منتصف الإصبع، ومضة حائرة لاحت في عينيه منعته من التركيز وهو يوقع على وثيقة الزواج، لم يستوعب اللحظة، قبل يدها في نهم بين دهشة الحضور، لم يصدق أن بيتاً سيجمعه بناهد، لم يكن هو الأمل بالنسبة لها، مجرد رجل ذكّرها بما جرى لها في الصغر ومازالت تنتظر الساعة في قلق، كل يوم يقربها من اللحظة الحاسمة، أبدأ .. لم تتخيل نفسها بين أحضانه، نحيف متوسط الطول يسير في خطوات مراهق لا تتناسب مع عمره الزمني ولا العقلي، أصلع الرأس في أناقة مفتعلة، ميسور الحال إلا قليلاً، مثلها

موظف حكومة لم يطمئن لأحد من النساء من قبل، بهرته بجمالها لوزية العينين دقيقة الملامح ذات وجه مريح تنقلك معها في سهولة إلى أبعد مكان في الجنة، تتمنى أن تتزوج ممن تحب، ترى من هو إن لم يكن صلاح ؟

كثيراً ما أشفقت عليه، يزعم أنه يحبها وهي في قرار نفسها لا تحبه، ارتباطها به ارتباط المضطر، ليتها تجد من تمنحه عمرها، انساب دمعها حتى ظن من حولها أنها دموع الفرح وانتهى اليوم ولم ينته وهو مصر على دعوتها للعشاء في بيته يقتنص منها قبلة أو شيء من هذا القبيل، فالزواج رضا وقبول، اقترب الليل من المنتصف وقد عبر صلاح عما يؤلمه، لا يحسن التعبير عن مشاعره وبشيء من البلاهة أمطر وجهها بالقبلات، جفلت منه أول الأمر حتى استجابت وهي تحول بينها وبينه، شيء من النفور أبعدها، عرفته أكثر وأيقنت بعد طول تردد أنه الشخص الذي لا يمكن أن تأتمنه على سر، إما أن تجد حلاً لما يؤرقها أو تنفصل عنه وقد مر على عقد القرآن ما يقرب من عام .

٥

انتظمت ناهد في عملها مثلها مثل غيرها توقع بدفتر الحضور والانصراف ومن إدارة إلى أخرى تنقلت وتعرفت على زميلاتها ورئيس القسم، بعض الزملاء جاء يقدم نفسه في أحسن صورة، هكذا الرجال دائماً ! يقدم الرجل نفسه وكأنه مناسب لكل نساء الأرض، قادر على كل شيء، هو الشريف الشهم الشجاع ذو المروءة، الكريم إلى أبعد مدى حتى إذا مالت إليه أعلن عن رغباته بلفته وهمسة أو إبداء رغبة أو دعوة وهكذا، إذا وجد قبولاً استمر وإذا صادف عزوفاً ابتعد إلى أخرى يطارحها الغرام، أغلبهم كذلك إلا هو، تُرى من يكون هذا الرجل ؟ قوي في حياء، لم يقدم نفسه لها ولا يعنيه أمرها أو غيرها، لم تلفت نظره ولا التفت إليها، وفي شيء من الجدية والصرامة يتحدث، إلا أنه طيب القلب، تعارفا بدافع منها وتبادلا أرقام التليفون وراحت تحادثه وتشكو، حكي لها حكايته، لم يكن قد تزوج بعد وإن مر بعدة تجارب انتهت بالفشل، ناهز الأربعين، أربعة عشر عاماً تفصل بينهما.. ولماذا السؤال؟ هي في حكم المتزوجة وبلا إرادة منها راحت تحدثه عما

تتمناه وأنها غير سعيدة بزوجها وتود الانفصال عنه بلا متاعب، حدثته عما يؤرقها بالتلميح، لم يفهم ما ترمي إليه، لم تكن له تجارب بالمعني المفهوم، اسمر اللون على وجهه لمحة حزن ووسامة لا تخطئها العين، حسن الظن بالناس إلى أبعد حد، ويوم بعد يوم لاحظ الزملاء ما يدور، لم يُظهر عواطفه لكن عيناها أعلنت الحب، حين تستمع إليه يتلاشى صوتها كامرأة وتذوب عشقاً وهي تحادثه، طيف من الأنوثة ينتابها وهي تلوذ به، تنصت إليه، حالة غريبة لم تشعر بها إلا معه، أي رجل هذا ! لابد من الاقتراب منه أكثر وكلما اقتربت بعدت المسافة بينها وبين صلاح ..وتناثرت الأقاويل بين مؤيد ومستنكر، إذ كيف تحب آخر وهي على ذمة رجل ! تناسى الناس أن الحب يجمّع ولا يفرق متخطياً كل الاعتبارات وكل ما يتعارض مع الدين يتجاوزه، الحب بمفرده ديانة في حاجة إلى مؤمنين، لقد آمنت به وكفرت بالآخر حتى لو أدخلها الجنة، أطاح بعينيها فطاش صوابها وأمام رغبتها ورغبته تعددت اللقاءات في بيت أسرته، مع أمه المسنة كان يعيش، لم تكن تدري بما يدور في الحجرة المقابلة، بادلها المشاعر في رفق حريص عليها كفتاة لم يمسسها بشر، كل تصرفاتها توحي بذلك، وتكررت اللقاءات وزاد الشوق بينهما ارتباطاً لتشتعل المعارك بينها وبين صلاح، هي زوجته على سنة الله ورسوله والناس شهود لكنها ترفضه من داخلها، فكرت

فيمن يحتويها ولم تجد إلا ذلك الرجل، أفضت إليه بما يؤرقها على وعد بنثر سنوات عمرها تحت قدميه، ستكون له قلباً وروحاً: الوحيد أنت في الدنيا الذي يعرف سري، ذُهل صاحبنا ..لم يستوعب أول الأمر، لم يجرب الزواج من قبل وقد لا تعنيه مثل هذه الأشياء، فكرته عن المرأة فكرة مثالية سامية أخرجت النساء من إطار البشر، يحب الحب، قطعة من براح العشق خُلق منها ليعيش في منطقة ما بعد الحب، تجاوزت العشق واقتربت من حد العبادة، حالم ساهم مشغول دائماً، يؤرقه كل شيء ولا يسعده شيء، يذكر فيما مضى والأطفال في مثل عمره يتقافزون فرحاً بالنجاح إلا هو، لا يحسن التعبير عن مشاعره وكأنما آخر قد نجح، يحمل في داخله كتلة من المشاعر وكأنها اللؤلؤ تنتظر من يستخرجها، لم تكن ناهد الفتاة التي ينتظرها بما روته واستمع إليه، رفض متعللاً بفارق العمر وهو في قرار نفسه يرفض الشرخ الذي أحدثته في العلاقة بينهما حين أسرت له بما تكتمته، عبر عن رفضه فكرة الزواج بشيء من اللباقة حتى لا يجرح مشاعرها وهي الصادقة في حبها .

كل يوم تنأى المسافات بينها وبين صلاح روحياً ونفسياً مهما ادعى أمامها من حب، لم تر في عينيه لهفة المحب، لم تشعر أنه رجلها يوماً كما شعرت بزميلها، لم تلق بشباكها حوله بل تحول هو إلى شباك، لحظ عينيه وقامته العالية، له مهابة لا تخطئها عين امرأة، سمرة بشرته تذيبها اشتياقاً

وحناناً إلى البيت والأسرة، زاد الهمس والناس لا يقرون الحب ولا يسلمون براحة القلب، أقسمت لكل من همس أنها لم تر من بين الرجال رجلاً غيره، توسلت إليه وبكت وشكت إلى الناس السيدات قبل الرجال، ولما لم تجد بداً صارحت أبوها فهو صديق لها وأسرت إلى أمها وأفضت بمكنون الفؤاد وألقت بدموعها على صدرها، رقت لها وبكت معها، هي أمها لكنها تفهم مشاعر المرأة فكيف إذا كانت ابنتها التي تعاني، نظرت إليها بإشفاق :

— لا تنسي أنك على ذمة رجل ..

— قلبي على ذمة رجل آخر ..أرجوك افهميني ..

— كلامي معه سيزيده إصراراً على موقفه .

الأمر بات محيراً، ودت لو عرفت الدنيا أنها تحب وتهامس الناس وعلا الهمس، كان لابد أن تخبر أبوها علّه يجد حلاً وتساءل الرجل مشفقاً :

— أي رجل هذا ! زميلك ؟ مؤكد أنه أعمى ..

— لا تقل ذلك، بل خير من وقعت عليه عيناي .

— اقدر ما أنت فيه وأعرف قيمة الحب واقدر فيك صدقك وعدم تحرجك من البوح لي، نحن أصدقاء قبل أن تكوني ابنتي، دعي الأمر لي، ربما قابلته وساعدته أيضاً، نسيت نقطة هامة .. أنت على ذمة رجل ! نسيت صلاح ؟

– كرجل ..لم أعد أتذكره، لا يملأ حياتي، الحقيقة أنا مشفقة عليه ..

– ولماذا أبديت موافقتك ؟

أصيبت ناهد بالخرس، ماذا تقول ؟ هل تبوح بما تكتمه، لم يطّلع على سرها إلا ذلك الرجل الذي أحبته وخيب رجاءها، ارتباطها بصلاح لم تخطط له، كان لضرورة فرضتها الظروف ولما صادفت الحب راحت تتمنى في رجاء، تمرد قلبها وحرّكها في اتجاهين متناقضين وحتى تستريح عرجت إلى بيت خالتها، هي في حاجة لمن يحمل عنها ويشاركها بعض الهموم لتواجه ناهد أكثر من مشكلة في آن واحد، صراع بين القلب والعقل، هل تحققت السعادة مع العقل ؟ هل تحققت مع القلب ؟ أسئلة كثيرة أجابت عنها بكلمات دامعة .

هناك مكثت بعض الوقت وقلبها لا يطاوعها على الحكي خوفاً من وقوع مشاكل بين الجيران، خالتها تعرف الجاني حق المعرفة، مازال موجوداً يتردد على بيت أسرته بعد زواجه وانتقاله إلى حي آخر، بعد صلاة الجمعة يطمئن على أبوه وأمه، لم تقو على البوح لتغادر وقد أرجأت ما جاءت من أجله، فكرت أن تصارح صلاح بحبها لآخر، مساء اليوم سيأتي مع أسرته لحسم الأمر، إما أن يتحدد موعد الزفاف أو يذهب كل منهما إلى حال سبيله، الاختيار صعب

والفرصة واتتها الآن، هي زوجة حتى ولو لم يدخل بها، ماذا لو طُلقت منه ؟ ربما وضعت زميلها أمام الأمر الواقع واختبرت حبه لها، ربما رق لحالها، لا تريد أي رجل.. ليته يدرك ! فارق العمر لا يهم فقد وهبت عمرها له .

اجتمعت الأسرتان وصلاح في حيرة من أمره، أعد الشقة، وبقي شراء لوازم الفرح، وجهت شقيقته سؤالاً خبيثاً وهي تهز رأسها وكأنها تستشعر الإجابة :

— ما رأيك ؟ أخي لا يعيبه شيء، هل هناك آخر !

التفت صلاح محتداً :

— إما أن نحدد موعد الزفاف وإما الأمر لك .

— مضى على عقد القرآن أكثر من عام ولم أستطع التوافق معك، حاولت أن اقترب، كل مرة أشعر بالفشل، لا يجب أن نخدع أنفسنا، ليذهب كل منا إلى حال سبيله ..

لمعت في عينه ومضة قلقة أخفت وراءها سيل من الدموع وانطلق مندفعاً للخارج دون أن ينبث .

وجاء من يهتف باسمها يبشرها ويعلنها بوثيقة الاستقلال، خطوة لابد منها على طريق التحرر العاطفي تقيم بها الدليل على صدق قلبها ورفضها القاطع للحياة مع شخص لا تحبه ليظل العقل والقلب في حوار لا يهدأ، كلما وقعت عيناها على صاحبنا انتقلت إلى عالم آخر،

وفي العمل شعر الناس بالآسي وشيء من الحزن إشفاقا عليها، تعلقت ناهد عبد الكريم بسليم طه، ماذا ينقصه ! هي تحبه، فارق العمر ربما يطيل العمر، المشاعر لا تقاس بالسنين وإنما تقاس بالعمق والحب له معايير أخرى، لم تكن محبة سليم إلا محبة واهية في مواجهة الحقيقة التي يؤمن بها، كيف يرتبط بفتاة ليست فتاة، هي امرأة وإن لم تمارس الجنس على حد قولها، وفي اتصال حمله رنين التليفون جاء الصوت منتحباً :

— من ؟

غاب الصوت فترة وترامى إلى سمعه ما يشبه البكاء ليعود مرة أخرى متهدجاً :

— أنا ناهد ..

— ماذا حدث ؟ ماما بخير والأسرة ..ماذا حدث ؟

— الجميع بخير إلا أنا ...صلاح طلقني ...

— لماذا ؟ هل حدث شيء ؟

— لا أطيق النظر في وجهه، أجلس معه وكأنه أنت، سليم أنا الآن أمامك، لا عائق يعوقني ..حدثت أمي وأبي عنك وخالتي أيضاً، لا تكسر قلباً أحبك، تعرفني جيداً وتعرف علاقتي بك، إلى أي حد .... لكننا لم نتجاوز، بداخلي مازلت عذراء كما كنت قبل عشرين عاماً، فكر

وتذكر كيف كنا معاً، أنا لا أتصنع شيئاً، مشاعري لن امنحها لرجل آخر، سليم لا تتركني لغيرك ..

لم يكن سليم غليظ القلب، فكرته عن المرأة أرقته كثيراً، يقدس الجمال، يرى في المرأة كائن شفاف زجاجي لا يجب خدشه، يتأملها كل يوم، هذا النوع من الحب العذري لم يكن له وجود في عالمنا، ربما أصاب ناهد لكنه لم يصبه، تمنى أن يعيش معها قصة حب مكتملة غير مخدوشة بعلاقة تعود إلى مرحلة الطفولة، ليتها لم تخبره، ليتها خدعته وتكتمت، ما الذي دفعها للبوح، سليم ليس نبياً ولا قديساً حتى يسامح ويغفر، لم يماطل أو يسوف بل كان صريحاً معها وتصارع الحوار بين العقل والقلب بعد أن أفاقت على واقع جديد، عليها أن تحسم الأمر ليعلو المنطق بعد يأس وقد مر من الوقت الكثير وما عادت الأمنيات الطيبة تنفع .

تعددت علاقات سليم المستترة حيناً والمعلنة أحياناً في محاولة منه لتدارك الموقف، هو في حاجة إلى علاقة عاطفية فيها ما يشبه الحس بعد أن امتنعت عنه وراحت ترتب لشيء آخر ....

لم ييأس صلاح وراح يلاحقها بين مكالمات ومقابلات وسّط فيها شقيقتيه حتى اقتنعت أما القلب فله أحوال أخرى، لابد أن يكون لها بيتاً، تطلعت إلى الأمومة، سليم

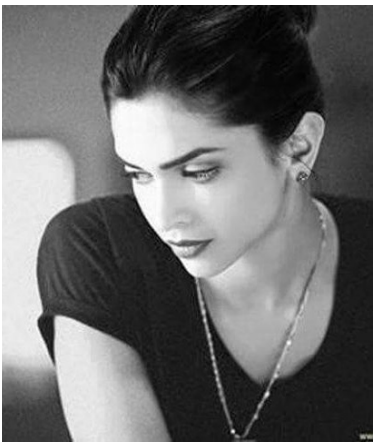

طـه تكفيهـا رؤيتـه وحديثـه المقتضـب، لا تريـد منـه شـيئاً سـوى الاطمئنـان عليـه، لم يمـر مـن الوقـت الكثـير حتـى عـاد صـلاح يصـل مـا انقطـع مـن حديـث لم يكتمـل وقصـة سـتكتبها الأيـام فصـولاً متعـددة ...

٦

لا أحد يحتكر الأحداث، كل منا قصة وحكاية تكتب الأيام كل يوم فيها كلمة أو حرفاً أو ترتب مصادفة أو تحيك مؤامرة، ليست مؤامرة بالمعنى المفهوم لكنه القدر، حين تقدم سليم لداليا حمل لها في قلبه أبجدية عشق ومفردات بكر لم تغزو قلب أحد، يسكبها حرفاً حرفاً من نور ونار وثورة، شقيقة الروح كانت، ليتها تعرف، وفي انتظار رد جاء على غير توقع فقد تقدم لها الكثير بعد وفاة زوجها لترد كل من تقدم، تريد من تأتمنه على نفسها وأولادها ومالها بعد أن ورثت عن زوجها الكثير وعلاقات متعددة بسيدات الخليج ممن عاصرن الحادث ووقفن إلى جوارها ومازلن، أبدت الأم مخاوفها على ابنتها من خوض تجربة جديدة، يكفيها أن تعيش لأولادها، وبعد أخذ ورد وتردد جاءت الموافقة، الرحلات كانت وسيلة التعارف بين سليم وبين أولادها حتى توطدت العلاقة وخلال فترة قصيرة انتقلت داليا إلى بيتها الجديد، وبشقة زوجها الأول احتفظت بأشيائه وصوره ولوحاته وكل ما يذكّرها به، يمكنها أن تتخلص منها لو شاءت لكنها أبداً لن تفارق أولادها فهم الذكرى الباقية من

الدكتور عاصم، أخيراً وجدت من يعوضهم عن أبيهم فهل وجدت من يعوضها كامرأة، وفي حوار بينها وبين شقيقتها كان لها رأي :

— في علاقتنا الخاصة شيء غير مريح، يبدو أنه يعاني، مر اليوم الأول وكان أكثر من طبيعي وبعدها حدث شيء غريب لم ألحظه عند زوجي الأول، كلما اقترب مني جفلت منه بكل كياني فيتلاشي هو وكأن بينه وبين النساء مسافات، لا أعرف كيف أتصرف !

— ربما كان مربوطاً !

— الربط هو عدم القدرة على الفعل ورد الفعل، الربط لا ينفي الرغبة ..لا أظن، هو طبيعي وأكثر بعيداً عن الفراش حتى إذا تلاقينا وانتقلنا إلى الدائرة الحسية فقد كل مظاهر الرغبة !

— شيء غريب حقاً !

— لاحظت شيئاً آخر، إذا كانت لديه رغبة جامحة وأراد أن نلتقي فقدت أنا الرغبة مما أرقني أكثر !

— اعرضي عليه الذهاب إلى طبيب ..

— الرجل في هذه الحالة يكابر ..

لم يستمر الحال طويلاً، تخلله مشاجرات بدا منها أنها تنعي حظها وأن الأمر ليس بدعة وأن الجنس في قريتهم عُرف له قوة القانون .

التفتت إليه :

— ألم تر العصافير فوق الأشجار ! حتى الحيوانات ! ألم تسمع بها ؟

لم يعرف كيف يرد وقد أبدى رغبة في الذهاب إلى الطبيب وهناك أجريت الفحوصات والطبيب ينظر إليه غير مصدق :

— أنت والحديد سواء بسواء !

— مستحيل !

روى سليم ما كان منها ومنه والطبيب في ذهول ولما أخبرها بما كان أيقنت أنه قد تواطأ مع الطبيب لتذيقه العذاب وتحول حياته إلى جحيم، ومما زاد ألمه تجاوز الشكوى الأم والأب إلى الخال والعم وأهل القرية وتبارى الجميع كل يدلي بدلوه، حتى شك أن مساً من الشيطان قد أصابه، فتش وبحث في كتب السحر عما يفك المربوط ويوشوش الذكر وبعض الوصفات من هنا وهناك، يبدو أن كلامها فيه شيء من الصحة فقد ظهرت بوادر علاقة حميمة أفضل مما سبق بعشرات المرات وحدث توازن بين الرغبة والفعل، لم تصدق وكلما حدث التوازن في العلاقة أمعنت في الشك لتعاود الكرة

من جديد بشكل يومي وهي لا تدري، أصحيح ما مر بها أم وهم ومن خلال علاقته بها لاحظ أهوال، لم تكن داليا هي داليا قبل خمسة عشر عاماً، انكسرت صورتها في مرايا قلبه، لم تنعكس نوراً وأملاً كما كان يحلم، كلما مر يوم زادت المسافات بينهما، كم عرض عليها أن يكون بينهما سباق : أيهما يحب الآخر أكثر ! لم يكن مازحاً أو واهماً، كلام القلب لم يجد صدى إلا في ابتسامتها الساخرة وفي حوار دار بينه وبين شقيقه بدا متأثراً :

— لم أقصر في حبها ولا علاقتي بها ..

— صحيح ما ادعته من قصور يشوب العلاقة بينكما ؟

— ألم تكن معي عند الطبيب ؟ ألم تسمع ؟

— قرأت وسمعت ورأيت، العلاقة الآن على ما يرام ؟

— بل أكثر ! كنا معاً بالأمس غير مرة، رأيت السعادة تطل من عينيها لكني لاحظت شيئاً غريباً حال بيني وبينها مرات كثيرة ..

— كيف ؟

— لا تتحدث ولا تتجاوب وأنا معها وكأنها تؤدي فاصلاً من الأكروبات الخالي من المشاعر ..

— عجيب أمرها !

- تحرضني على ممارسات منهي عنها، تصر عليها، لا تبوح برغبتها لكن جسدها يقول ما هو أكثر، يكاد يصرخ أن أستجيب، علاقتي بها علاقة حب فاقت أي علاقة أخرى، أمارس معها الحب بعقلي وقلبي ووجداني وروحي وكياني، أحتويها، أنثر القبلات على جسدها طولاً وعرضاً واعابث الخد والعنق والخصر النحيل وهى لا يعنيها ذلك في كثير أو قليل، تريد أن تنتهي مما هي فيه وأنا .. أحبها حب شاعر رقيق المشاعر، غيرت داليا فكرتي عن المرأة، لم تعد ذلك الكائن النوراني النابع من الجنة، وجدت من يدفع بي إلى النار ومن خلال ملاحظاتي أيقنت أن المرحوم أثر في جسدها وأضفى شيئاً أطاح بصوابها، ألمحت به وأشارت بإيماءاتها وتمردها على الواقع المعاش لتتحول إلى كتلة من اللحم الوردي مثيرة بلا إثارة، شيء ما يحزنك على ما فات من أيامك وعمرك الذي أهدرته خمسة عشر عاماً، حلم أفقت منه على واقع مر، الوهم كان كبيراً بحجم عذاب قلبي.

يواصل سليم حديثه إلى شقيقه في تأثر بالغ :

- ما أثار دهشتي وملأني رعباً ما اعتراها من أحوال، تهب من نومها وهى تصرخ : هناك من فتح باب الشقة، مستطيل الوجه، طويل الأنف وآخران، أحدهما يلبس ملابس سوداء والثاني في ملابس رياضية جاءوا

على غير ميعاد، تفقدت الشقة فلم أر شيئاً، أبداً لم تكن هكذا ! تفاقمت حالتها أكثر بين صراخ ورؤية أشياء على الجدران وأنا في حيرة من أمري، كم من المسافات قطعناها للترفيه عنها، أصحبها إلى كلية الفنون مقر عملها، حرصت على إبعادي حتى لا يراني أحد فيظن بها الظنون ! وكأني لست زوجها !

— كيف ؟ وهل طلبت منك الانتظار بالخارج، لا شيء في ذلك، ربما كانت في عجلة من أمرها

— ليت الأمر كذلك، بل حرصت على إخفاء خبر زواجها لتحافظ على صورتها ووفائها المزعوم ليقولوا عنها : رفضت الزواج بعد المرحوم من أجل أطفالها، ولأشياء أخرى في نفسها .

— أشياء مثل ماذا ؟

— الواقع يفوق الخيال أحياناً، كان علي اصطحابها إلى الشهر العقاري لإنهاء بعد إجراءات ميراث زوجها المتوفى، أما البيت فلا طاقة لها بالبقاء فيه يوماً، مشينا تظلنا شمس أغسطس الملتهبة ساعة أو أقل تركت على وجهها احمراراً زادها جمالاً وفي نهاية اليوم عدنا إلى بيت أبيها وهناك راحت تهمس إلى شقيقتها :

— تصوري ..مشيت أنا وعاصم أكثر من ساعة تحت أشعة الشمس المحرقة .

لم تحر نادية جواباً لكني التفت كمن لدغه عقرب :

— عاصم ! عاصم من ؟ هل بُعث من جديد ! وأنا ! هل مت وعاد المرحوم للحياة !

ظل الحوار ممتداً بين سليم وبين أشقائه وهو في حيرة من أمره، منطقة المنطق في خطر بالغ وخلط كبير، هل هي هلاوس سمعية وبصرية تلك التي تعاودها بين الحين والحين وتصور لها أشياء ما بين صوت وصورة تتحرك وتفتح الباب ليلاً وأشباح تتراءى على قطع الأثاث، تتطلع إليها وتحدق فيها ! أي تعاسة تلك ! اضطربت حياتها كما اضطربت حياة سليم ولم يحر جواباً وهي تطلب منه الانفصال بهدوء ومودة حتى تعود لحياتها الطبيعية وتسترد عافيتها، حاول أن يستدرجها للذهاب إلى الطبيب فثارت ثائرتها إذ كيف يتهمها بالجنون ! والغريب أنها استدرجته للذهاب والطواف بها على المشايخ ومن يضربون الودع ويقرءون الكف وهو يضرب كفاً بكف، لقد أجمع هؤلاء على خلوه من آية أعراض سفلية أو أرضية وأوصوه أن يترفق بها وهو في دهشة : من يترفق بمن !

رتبت داليا لكل شيء وأعدته بعناية، شقة زوجها المتوفى بها بعض الأثاث، أشارت علي سليم أن ينتقلا إلى هناك لتغيير الجو بضعة أيام حتى تهدأ، لم ينس ذلك اليوم حين جاءت تهمس تستأذنه أن يغادر لأن فلاناً جاء

من الإمارات يريد أن يطمئن على الأولاد : لم يتركوني يوم الحادث ..أرجوك، أثار الطلب غضبه وهو يردد : ليتك ما تكلمت! نسيت أنني على موعد من الرابعة وحتى السابعة !

انتهى من موعده وفي رأسه شيء يدور : يا لها من امرأة! لابد أن في الأمور أمور، تذكر موقفها حين طالبته بالانتظار حتى لا يراه أحد من زملاء العمل، هاهي الآن تتعمد ألا يراه زائر الإمارات وزوجته، ربما جاء بمفرده، شعر بجرح في كرامته وبأن شيئاً يباعد بينها وبينه وأصر على الانتقال لشقته، تعمدت داليا التردد بين شقة زوجها وبيت أبيها، أما هو فقد أقام بمفرده، يطمئن على أبيه بعد رحيل أمه، تذكر أغلى كلمات سمعها : ليتني أعيش لأرى أولادك .

عبر التليفون جاءه صوتها يدعوه في بيت شقيقتها على بعد خطوات من الميدان الكبير، سارع إليها وكعادتها لا تفعل شيء دون ترتيب، اليوم كان السبت، لم يعرف لماذا اختارت هذا اليوم بالتحديد وقد أعدت نفسها للقاء أعقبه آخر أعقبه دعوة على الغذاء في أحد المطاعم القريبة، استبشر خيراً: أخيراً رُد إليها صوابها !

يبدو أن الأيام ابتسمت إذ راح يستعيد أحداث السبت، هاهو السبت الذي يليه على بعد ساعات، موعده صباحاً مع منحة الزواج، فكر أن يهديها سواراً أو خاتم يذكرها بخاتم الزواج أو يهديها قطعة من قلبه لو استطاع، المبلغ

ما يزال في جيبه والشوق يزيد، أسرع الخطى نحو بيت أبيه يطمئن عليه، أخبره أن خال داليا يريده في أمر هام، ساوره القلق ! صعد السلم مهرولاً والباب مفتوحاً على مصراعيه وأصوات شد وجذب وبكاء خافت يصدر من أحد الأركان، رجال كثر ونساء جاءوا من القرية على ميعاد خارج عن إرادته ونطاق علمه، تقدم من الشيخ عبد الودود يسأل ما الخبر :

— ألم تتفق أنت وداليا على الطلاق ؟

— أنا ! أطلق داليا ! وهل الطلاق في حاجة إلى اتفاق ؟

— هكذا أخبرتنا قبل أسبوع ..

— غير معقول ! أين هي ؟

لم يصدق وهبط السلم ثانية ليخبر والده، يلوذ به في المحن دائماً فلم يتعرض لموقف كهذا من قبل ولم يتزوج من قبل ولن يحب غيرها أحداً، لماذا ؟

— تريد الطلاق !

— هكذا بلا أسباب ؟

— تعرف عني كل شيء، أنفقت مالي في سبيل إسعادها .

وفي تأثر بالغ ربت والده على كتفه :

— إياك أن تفرض نفسك على أحد ..

– لم أغضبها يوماً، كما ترى، لم يمض على زواجنا إلا شهوراً، الكلام معها غير مجد، أنا على يقين من ذلك ..

– تماسك ولا تفرض نفسك على أحد أياً كان ..

وفي خطوات متثاقلة صعد سليم إلى الطابق الرابع وقد زاد عدد الحضور في انتظار قضاء الله : ماذا يفعل ؟ أشقاءه كل في بيته والأم توفيت، راح يتوسل إلى شقيقتيها وأبوهم عبد الودود، قسوة قلب حلت على الجميع، جلس جوارها يقبل رأسها ويرتب خصلة من شعرها وبصوت دامع :

– داليا .. ماذا بك ! أنت مريضة ؟

– استخرت الله أن ننفصل ووجدت راحة كبيرة في ذلك .

– تعرفين قدرك عندي، هل قصرت في حقك ؟ خمسة عشر عاماً لا أرى إلا أنت، طيفك لا يفارقني ..أرجوك.. ماذا يقول الناس عني، أعيدي النظر في ظلمك ..

– استرحت لما انتهيت إليه، ألا يرضيك أن أكون بخير، الصداع يدق رأسي وصوت يهمس بإلحاح أن لابد من الطلاق، ألا تريد لي الراحة ؟

بدموع غزيرة راح يرجو لعلها ترق أو تقدر حالة القلب، ليست داليا الأمس، تجردت الكلمات من معانيها وتبدل معنى الحب، امرأة لا تعرف المشاعر، انتبه على صوت الشيخ عبد الودود :

— استغفر الله، قدر الله وما شاء فعل .

— بل مشيئتكم وحكمكم !

— ما عاد الكلام يغني عن شيء، دعها تستريح وتتفرغ لأبنائها وعملها، ماذا تريد منها ؟

وجاء من القرية رجل يسعى يحمل ذات الدفتر الذي حمله من قبل، استدعوه عن عمد لينهي ما بدأه قبل ثلاثة أشهر مشاركاً في جريمة اغتيال قلب أحب، جاء وكأنه الموت، لم يسبق لسليم الزواج من قبل ولم يسبق له الطلاق ليجلس بينهم مستسلماً لما يتلوه عليه الشيخ، مر الوقت ثقيلاً كالمرض وبوادر اتفاق لم يشارك فيه تواترت :

— من جاء بشيء يسترده ..

— افعلوا ما شئتم .

راح الشيخ يكتب ويكتب وبيد ترتجف وقع باسمه والشيخ يردد كلمات ودالياً تؤيده، تذكر كلمات والده : إياك أن تفرض نفسك على أحد ولو كانت حياتك هي الثمن ..

حالة من الانهيار انتابته وهو يغادر بمساعدة خال التي كانت زوجته، ذكّرها بمنحة الزواج وبالسوار الذي وعدها .

صباح اليوم التالي كان مختلفاً، لا الشمس كانت هي الشمس ولا نور النهار يشبه الأمس وعليه أن يمضي حياته متردداً بين بيته وبيت أبيه يطمئن عليه كل حين، آثر

الحيـاة بمفـرده وابتعـد عـن كل مـا يذكّـره بهـا وهـي الـتي لم تغـب عـن بالـه لحظـة، حـاول الهـروب مـن واقعـه وأيامـه حتـى سـاءت حالتـه بمـوت شـقيقه وأبـوه في أسـبوع واحـد لكـن قلبـه مـن علـى البعـد ظـل يتابـع أخبارهـا مـن خـلال مكالمـات دارت بينهمـا : مسـكينة، يبـدو أن الأمـر خـارج نطـاق السـيطرة وربمـا عـن نطـاق البشـر ومازالـت العلاقـة قائمـة بينهـا وبـين شـقيقاته وبـين أسـرتها أمـا هـي فقـد انتقلـت لشـقة زوجهـا المتوفـى وواصلـت عملهـا حتـى حصلـت علـى الدكتـوراه في الفنـون واسـتمرت حياتهـا بعـد أن تخلصـت مـن كابـوس الأمـس، تـتردد بـين بيتهـا وبيـت أسـرتها تتنـاول الإفطـار يومـاً بعـد يـوم، ود سـليم أن لـو أفطـر في الفضـاء حتـى لا تقـع عينـاه عليهـا، لم يجـد أمامـه إلا أحـد الأصدقـاء مـن التجـار شـاركه الإفطـار هـو ومـن معـه وعـدد مـن حـراس العقـارات وصاحـب المطعـم والفرارجـي يفترشـون الأرض طـوال شـهر رمضـان وهـو معهـم علـى قارعـة الطريـق ومـازال طيفهـا يلاحقـه، كـم تمنـى أن تخـرج مـن مكمنهـا بالقلـب، تغـيرت بفعـل فاعـل، رحمـه اللّه لم يـترك في جسـدها مسـاحة إلا واجتاحهـا، بالترغيـب أو الترهيـب حيـث اعتـادت مـا قـد يسـوء غـيره، تغـيرت الدنيـا أمامـه بعـد أن أنبـت قلبـه حيـاة وأشـواقاً وعناقـاً، مضـي شـهر الصيـام وعـاد سـليم لزيـارة شـقيقته الـتي اسـتقرت في بيـت الأسـرة اسـتمراراً لحيـاة الأب والأم .

٧

آثر الحياة في شقته وحيداً يتردد بين الحين والآخر على ملك العرافة متابعاً حياة ابنتها التي تزوجت وانتقلت إلى بيتها، استقرت ولم تستقر، عند أمها تجد راحتها، البيت يؤمه عشرات النساء وبعض الرجال، تفك المربوط وتربط المفكوك وتسهل حال من يرغب في الزواج بإشكاله المختلفة وتشجع من تريد الطلاق، لا يقف أمامها عائق وقد اتحدت إرادتها مع إرادة الجان وابتعدت عن مشيئة الرحمن بالقول والفعل وكان لها بعض ما أرادت، وفي أوج أزمته اتصل بملك على وعد بلقاء وهناك وجد آمال، شيء من الشوق أطل من عينيها، جلست إلى جواره بمودة وكأنما تستدرجه لحديث قديم :

— لم أرك منذ فترة ! ماذا تعمل الآن ؟

— في أحد الأجهزة الرقابية ..

— ما شاء الله ...لم تتزوج بعد ؟ كنت أمامك وأنت الذي رفضتني !

— كل شيء نصيب ..

— بإرادتنا نحن نكون كما نريد، لا تلق كل شيء على القضاء والقدر، ما الذي منعك عني ؟ لن أنسى هذا الموقف ما حييت ..

— المهم أن تكوني بخير ..

— سمعت أنك تزوجت .. وطلقت .. بهذه السرعة !

— لو كان الأمر بيدي ما طلقت ولو كنت أعلم الغيب ما تزوجت، كان على إدراك ما رمت إليه أمك ..

— وماذا قالت ؟

— تنبأت بزواجي من ثلاث، وها أنا ذا طلقت زوجتي بالثلاثة، من الثانية والثالثة يا ترى ؟

— لا تأخذ كلامها على محمل الجد ..

— لكنها بشرتني بأنني ساترك الصحافة وسأعمل في عتبة حكومة وقد حدث بالفعل ..

— ألا تنوي الزواج مرة أخرى ؟

— بعد هذه التجربة ..لا أظن .. تبدين غير سعيدة ..

— تزوجت مكرهة بعد أن عرضت عليك نفسي .

— ربنا عوض عليك الآن ..

— لم أحب نبيل ولا أحببتك، لكني توسمت فيك الخير، إنسان طيب لن تظلمني أما هو فلا أعرفه، طول بعرض بارتفاع لكنه غريب عني، لدي منه طفلة، طارق حبي الوحيد لن أنساه أبداً، أول من دق قلبي له ورق ..

— وماذا عن نبيل ؟ وظيفته ومستواه الاجتماعي راق .

— مرشد سياحي، يتغيب عن البيت أسبوعٍ أو أكثر كل شهر وقد يتغيب نصف شهر بأكمله متنقلاً بين الإسكندرية والساحل الشمالي وأسوان، تغير كثيراً من ناحيتي حتى في علاقتنا، لاحظت ذلك دون تقصير مني، علمت بالصدفة ومن خلال تليفونه أنه على علاقة بأخرى، مطلقة وزميلة في الشركة التي يعمل بها، تواعدا غير مرة حتى أهملني، جرحني في كبريائي ولما واجهته خيرني بين القبول وبين الطلاق ..

— وماذا اخترت ؟

— كرامتي طبعاً، لكن في قرار نفسي لا أتمنى ذلك، تمنيت أن يرفض وأن يتمسك بي ويشعرني أن لي مكان في قلبه لكنه فضل الأخرى ..

حاول سليم أن يغير مجرى الحديث :

— ألا يوجد حل عند ماما بصفتها عرافة !

— ماما ..لاااا ..يكفيها ما هي فيه، زبائن ..نساء ورجال،

توفق رأسين في الحلال وربما ثلاثة !

تناول من القهوة قدح وأمام العرافة جلس منها مجلس الأسير يستمع إلى ما تتلوه عليه من وساوس الجان :

— طريقك نور، طيب أنت، سيكون لك من المال الكثير وبيت ذا حديقة وزهور، سيكون لك ابن ..ابن حرام طبعا، أما عن المجد والشهرة والجوائز ستحصد منها الكثير، على شاشات التليفزيون سيكون لك ظهور، فنجاني لا يخيب ابدأ ولا يخيب ظن من يراه .

اقتربت العرافة من وجهه تشير بإصبعها نحو الفنجان :

— انظر إلى هذا الكلب، كن على حذر منه، وتلك المرأة تريدك لنفسها والأخرى تحبك، كثير من النسوة حولك، لا أعرف كيف جمعهم فنجان واحد !

وجد لدى العرافة راحة لم يجدها في بيته، يزورها بين الحين والحين يجلس إلى آمال يواسيها بعد أن تلقت ورقة الطلاق وهي في حالة يرثى لها وقد احتفظ زوجها بحضانة ابنتهم فرح، رائعة الحسن جمعت بين جمال الأم ووسامة الأب فكانت أقرب لنجمات السينما لتظل آمال حائرة تتطلع إلى زيارة ابنتها ومتابعة أمها في قراءة الفنجان وتدخين السجائر، أغلقت غرفتها لا تخرج منها إلا لتناول الطعام وهكذا استمر الحال بها سنوات وسنوات تركت أثارها،

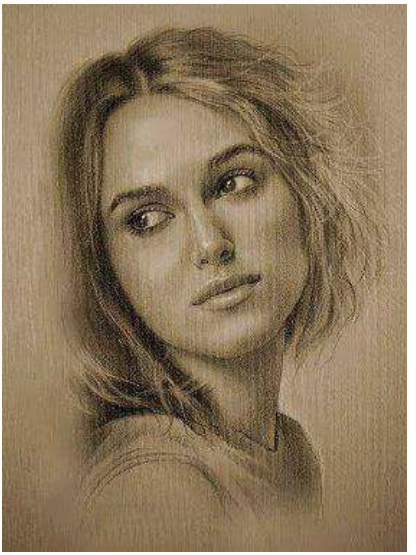

الشعر منسدل بلون الليل اعتراه الشيب قبل الأوان، خصلات كاملة بلون الحزن وطعم البكاء وقد هزل منها الجسد وراحت تتخيل أوهام وأشباح وخيالات تمشي على سقف الحجرة، وبدون أن تدري تمتد يدها إلى خصلة من شعرها تنزعها ويتوالى سقوط الشعر، رثة الثياب كانت، جاء الطبيب وذهب، لم تكن تعاني مرضاً عضوياً، لكن النفس المرهقة المحبطة في حاجة إلى دواء إنساني، فمن يقدم لها الدواء ؟

لم تنقطع صلته بالعرافة ولا ابنتها التي زادت حالتها سوءاً مجبرة على الحياة لا تعرف إلى أين تذهب ؟

٨

في بيت ناهد تجدد الحديث القديم، رحبت الأسرة بعودة الغائب وتهللت القلوب فرحاً إلا قلبها، لا تطيق صلاح ولا تتصور الحياة بدون سليم، سليم طه .. ملاك هبط عليها من السماء ليحيل حياتها نعيماً وعذاباً، باحت له بما أسرته في نفسها والآن لم يكن هناك مهرباً، راحت الأسرة تعد ما يلزم لإتمام الزواج لكن ماضيها يؤلمها ويربك حياتها، ودت لو رق لحالها وستر عليها وأقسمت بالله أن تمنحه ما بقي لها من عمر، لم يكن لخاطرها أي اعتبار عنده، وكان لابد من الزواج وقد اقتربت من الثلاثين، صلاح هو الشخص المناسب ولو كرهت عشرته، لم تفكر فيه يوماً كزوج ولا رجل ولا صديق، فكرت أن يكون لها بيت هي سيدته، أما رجل القلب والعقل سليم ولا ريب حتى لو تزوجت من الرجال ألف، تحدد موعد عقد القرآن للمرة الثانية، لم تكن هناك خطوبة ولا فاصل زمني بين عقد القران وبين الزفاف وتأهبت واشترت ثوباً أبيضاً مرصعاً بالفل ليقترب الموعد أكثر ومازال قلبها معلق بسليم وعقلها معلق بما كان، ماذا تفعل والوقت أزف ! لابد ممن يقف بجوارها، لم يكن

أمامهـا إلا خالتهـا :

— أراك مهمومة ؟

— لا شيء إلا صوت من الماضي قبل إحدى وعشرين عاماً

— طوال هذه المدة ..لماذا لم تتكلمي ؟

— الأمـر أصعـب ممـا تتصوريـن، لم أجـد غـيرك يفهمـني ويبـدد حيرتـي .

— هل أصابك مكروه .. تكلمي .

ومضـة حائـرة مغلفـه بالدمـوع لاحـت في عينيهـا ثـم انطلقـت في نوبـة مـن البـكاء شـديد :

— تعرفين عرفه ؟ عرفه .....

أشارت بيدها تعبيراً عن قصر قامته .

— مـا لـه عرفـه ؟ انطقـي، تـزوج مـن عشـر سـنوات ويـزور أمـه بـين الحـين والحين .

— هو عرفه ..

— تكلمي ؟

بصـوت منتحـب أفاضـت وخالتهـا تسـتمع في ذهـول : في ذلـك اليـوم وعقـب خروجـي مـن المدرسـة طرقـت بـاب جارتنـا انتظـاراً لعـودة أمـي مـن العمـل، كنـت أعرفـه، عرفـه ابـن

الجيران يداعبني ويقدم لي الحلوة ويقبلني أحياناً وأنا سعيدة بذلك، أوصته أمه بإطعامي ومراجعة الدروس معي، أخرجت بعض الأقلام والكراسات ومازال يداعبني حتى امتدت يده إلى جسدي وتمادى حتى تغيرت ملامحه وهيئته التي كان عليها وأنا لا ادري، ماذا يراد بي إلى أن شعرت ببعض الألم، صرخت حتى جاءت أمه لتقع عيناها على حالي وراحت تؤنبه : كيف تفعل ذلك ببنت الجيران.. حرام عليك !

انتهى اليوم ولم ينته فقد عاش معي حتى اللحظة لم يبرح خيالي ولما كبرت أدركت ما أنا فيه ولم أشأ أن أُخبر أمي وعرفت أنه خطأ وانقطعت صلتي بعرفه وأمه، شيء باعد بيني وبينها وبيتهم حتى تزوج من امرأة أذاقته العذاب ألوان .

— سمعت عن حكايتها، طلقها بعد أن تم ضبطها في شبكة دعارة ليعيش في بيته وحيداً بعد أن أنجب منها طفلة صغيرة، هي الآن في السادسة !

— لم يبق إلا أيام على موعد الزفاف، بماذا تشيرين علي؟ هل أصارحه ؟ وما العمل إذا اكتشف الحقيقة ؟

لم تبح بسرها إلا لسليم طه الذي أصر على موقفه وراح ينتظر ماذا تفعل في ورطتها وماذا يكون موقف هذا الرجل المخدوع المسمى صلاح ؟

طمأنتها خالتها :

- سيمر الأمر بشكل أو بآخر، الحيلة أفضل من الفضيحة، إياك أن تخبري أحداً، حتى أمك، هل أخبرت أحداً غيري ؟

- سليم، أملت أن يقدر موقفي، الوحيد الذي بادلني علاقة حب لم تصل إلى مرحلة الخطر، رويت له ما حدث، تعاطف معي وأشفق لكنه يؤمن بشيء لا وجود له إلا في رأسه، اعترف أنني أحبه، ليته أحبني مثلما أحببته، مجرد تجربة مرت به في طريقه لكنه يريد الحد الأقصى ككل الرجال وهو يعلم علم اليقين أنني لا يمكن أن أفرط في نفسي، لو أردت لفعلت والحقيقة لم يسع هو لذلك .

- كثير من الرجال لا يعر هذا الأمر اهتمام، الأمر بسيط ولكل حادث حديث ..

ظلت الصلة موصولة بين ناهد وبين سليم في مودة من طرف واحد، تطمئن عليه وتتابع أخباره، وما آلمها تعدد علاقاته مما آثار غيرتها وتخففه في الحديث معها مما آثار عذابها وفي الوقت نفسه تتأهب للزفاف وقد تحدد الموعد، لم يبق إلا أيام تجسدت خلالها علاقاتها بسليم وصورة عرفة لا تبرح خيالها وصوته يخترق أذنيها كلما مر الوقت، حانت اللحظة المرتقبة وتجمع خلق كثير من باب البحر جاءوا مهنئين ومن أبواب الأحياء القريبة أيضاً تقدمهم عرفه وأمه، ساعات قليلة وينتهي الأمر، أشياء

غريبة تسكن عقول الرجال، كل ما دارته سنوات انتهى في لحظة، ليتها ما شعرت بالقلق، ليتها ما أخبرت سليم ولظلت في نظره عذراء، وكلما هم صلاح باحتضانها اشتاقت لسليم أكثر، إذا تحدث تحولت من موظفة منضبطة إلى أنثي تهفو نفسها إلى ذلك الصنف من الرجال، يحتوي أي امرأة بصوته وهمسه فكيف الحال إذا تحدث حديث الود والثورة والأمل، إذا تألم جاء صوته باكياً وإذا تحمس فهو الثائر، يا له من رجل، طويل القامة اسمر اللون اكتحلت عيناه بحزن دفين، من ينزع عنه هذا الحزن، هو في حاجة للحب، لمن يهتم به ويشعره أنه مازال على قيد الحياة، انغمس سليم في علاقة هنا وأخرى هناك حتى أصابه الملل وراح يبحث عن بنت الحلال في القرى والنجوع وتقدم لأكثر من واحدة إلا أن محاولاته باءت بالفشل حتى كان يوم وقد عادت ناهد من إجازة الزفاف تسأله إن كان بالبيت ؟

في السادسة مساءً والجو شتاءً سمع طرقات خفيفة ليجدها أمامه، لم تتغير بل ازدادت جمالاً على جمال، دلفت إلى الداخل، عانقته بروحها وكل جوارحها، ولأول مرة يشعر سليم بالذنب وبأنه ما كان يجب أن يترك هذا القلب لأحد غيره، ناهد عبد الكريم، تذكر كلامها ورجاءها، رجاء أغلى من العمر ! لكنه النصيب، لا يعرف كيف حرم نفسه منها، ها هي اليوم في بيته جاءت بإرادتها لتعلن وتؤكد أنه الحبيب الأول وأنه مازال ملء القلب والعين، تزوجت

وبدأت تكتب أول سطور حياتها، لكنها ظلت على الود باقية، تنقطع علاقاتها حيناً ثم تعود أقوى مما كانت لتنتقل مع زوجها إلى إدارة أخرى، عاشت حياتها وكأنها زوجة واستمرت علاقتها بسليم بين تودد وصد ومصالحة ومشاركة في طعام وشراب وقبلات على فترات حتى داعبتها أحلام الأمومة وبعض القلق وقد مر على زواجها أكثر من عام بين متاعب وإجراءات ومحاولات لإنجاب طفل، ألا يكفي أنها تعيش مع زوجها مرغمة ! أفلا يكون لها طفل، ظل سوء الطالع يلاحقها حتى تحقق لها ما أرادت بإنجاب طفل رائع، ليتها تزوجت ممن تحب، طيفه ظل يلاحقها، قررت ألا تضعف أمامه كما كان يحدث بالأمس، لم يمسها سليم بعد أن أصبحت أم، ليته تزوجها ربما جعلته أسعد رجل في الكون، فقط هي أشياء لا وجود لها إلا في مخيلته وأوهام نسجت خيوطها في رأسه أسئلة عن الفرق بين الفتاة وبين المرأة وغشاء البكارة، العفة ليست في الأوهام ولكن في الإرادة، أن تكون كما تريد لنفسك أن تكون لا كما يراد بك أو لك، مفهوم سليم طه حول العفة غير حياتها، هي متزوجة لكنها مثله محرومة من الحب ومن الحياة، تعيش مع نصف رجل يمثل الغطاء الخارجي لعلاقة زوجية، تتأبط ذراعه كل صباح وحين تلمح سليم تحرر يدها وكأنها تشعر بالذنب أو تراعي مشاعره، ذلك الرجل الذي لم يرع يوماً مشاعرها، هل يستحق كل هذا الحب ؟

٩

انتهت المحاضرة منذ لحظات وتسارعت دقات قلبه تسابقه إلى هناك، استقل الترام المتجه إلى قبلته ومعبده، شيء يشده إلى بيت الحبيب، لم يكن مجنوناً وبيتها على بعد دقائق من محطة ترام ميدان الإسماعيلية، له في التاريخ ذكر وفي القلب مكان، مازال صديقه إبراهيم في انتظاره يدرس تجارة الأعمال أما جلال فيدرس الطب، جمعت بينهما الصداقة وحب هالة، تدرس اللغات وتهوى القراءة والأدب، تحمل قلب طفل وجسد امرأة، في الثامنة عشر تطل من عينيها البراءة، لا تعرف عن الزواج إلا الحب، لم تحب ليلى العامرية وتعاطفت مع المجنون، ودت لو كتب الأشعار لها، قد يتغير الزمن لكن الحب لا يتغير، منذ التقت جلال تبدل الحال، تجسدت فيه ملامح أبطال قصص الحب في الزمن القديم، مازالت تنتظره على استحياء وقد غادر المحطة مترجلاً إلى شارع هارون الرشيد ومنه دلف إلى شارع جانبي اصطفت على جانبيه الأشجار، بيت هالة ذا حديقة فيه أشجار وظلال وأغصان وأوراق تعانقت في حوار، توارت خلفها حتى لمحته من على البعد آت،

أسرعت تقف خلف الباب تنتظر همس أنامله، قد جاء في زيارة لأخيها بين ترحيب الأسرة، لم يبق على تخرج جلال إلا شهور لكنه يطلب القرب من الآن، كيف وهو القريب! وافقت الأسرة على أن ينتهي من دراسته أولاً أما هي فقد اكتفت بدراستها الثانوية، ابنة وحيدة تشبه نجمات السينما، تعددت اللقاءات وقد انتهى جلال من دراسته وتحدد موعد عقد القران والزفاف لتنتقل في غضون أشهر قليلة وتستقر في بيتها ما يقرب من عام وقد ظهرت بوادر الحمل تعلن عن نفسها إيذاناً ببزوغ فجر جديد حتى وصلت إلى اللحظة الحاسمة، لحظة الميلاد ولحظة الخلق سواء، عالم غريب يخرج إليه زائر جديد رغم أنفه، مسألة الميلاد والموت أرقت جلال كثيراً وفي ركن منزو من قاعة الاستقبال جلس ينتظر ما يقوله الطب : يبدو أن الحالة غير مطمئنة ! ملامح الطبيب وطاقم التمريض تشي بذلك والأم تسأل في لهفة : ماذا حدث ؟ اجتاحه الخوف وراح يعدو خلف الطبيب :

— قل لي بربك ..ماذا حدث ؟ الجنين لا يهم ..

— ربنا موجود، الوضع في غاية الخطورة .

— ماذا أقول لأسرتها ؟

مازالت روحها معلقة بين السماء وبين الأرض تنتظر من الله رحمة تريحها وتريح أسرتها، توفى الجنين ويحاول

الأطباء إنقاذ ما يمكن إنقاذه ليخرج الأطباء من حجرتها وفي العين دمع غزير :

— دكتور جلال ..البقاء لله ..

اتشحت القلوب برداء حزن عم الجيران والجدران والشارع المؤدي إلى بيتها، وقفت الأشجار حداداً وخيم الصمت على نور النهار، اليوم كان غريباً يوم شيعت إلى مثواها الأخير لتظل قصة هالة وجلال واحدة من قصص الحب الخالدة في حي مصر الجديدة وشارع هارون الرشيد، لم تنقطع صلة جلال فقد اعتاد زيارة أخيها إبراهيم، تأثر كثيراً وتحول من طبيب إلى ما يشبه القديس يخفف آلام المرضى، صدقة ورحمة بهم رافضاً فكرة الارتباط، كلما هم بالاقتراب وقف طيف حبيبته حائلاً أمامه، رآها في وجه كل امرأة واستغرقته الحياة معها حتى بعد وفاتها، لم يصدق ورفض فكرة الموت، حدثته نفسه وهو يدعو ويبتهل : لماذا كُتب علينا الموت، أليست الحياة خير من الموت ؟ أم أن الله يعاقبنا على حياتنا، هل تحولت حياتنا إلى حق انتفاع أو ما يشبه عقد غير محدد المدة بيننا وبين الله، ليس من حقنا أن نعترض، أفاق من شروده وتساؤلاته قبل أن يشرد أكثر: لا، بل حق عبادة وحب وتواصل وتعلق الفرع بالأصل، نحن ورقة في شجرة الحياة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ينتابه الضعف البشري كغيره من الناس، لم يستوعب بعد فكرة الحرمان، أن يحرم المرء من نفسه، الارتباط النفسي

غـير الارتبـاط الشـرطي، الأول هـو الحيـاة والثانـي أبعـد مـا يكـون عـن الحيـاة، مـازال موضـوع المـوت والحيـاة يؤرقـه، لم يمـت لـه أحـداً مـن قبـل ولـما فاجـأه الواقـع، تغـير إلى الأفضـل، مـوت هالـة أحيـا فيـه أشـياء كثـيرة، حـب الخـير ومسـاعدة المحتـاج، يجـد نفسـه في كل محـب، فكـر كيـف يكـون سـبباً في إسـعاد النـاس وبينمـا يطالـع بعـض الدوريـات العلميـة للوقـوف علـى الجديـد في العـلاج وتطـور بعـض الأمـراض الـتي لم يتوصـل الطـب إلى عـلاج نهائـي لهـا، هالـه مـا رأى ومـا سمـع عـن الأمـراض النفسـية والعقليـة، منهـا أنـواع محـيرة، ومضـت في رأسـه فكـرة وأشـعلت خيالـه : لـماذا لا يكـون سـبباً في إسـعاد هـؤلاء المرضـى والتخفيـف عنهـم، راح ينقّـب ويسـأل ويفتـش في كل المراجـع، موضـوع الحرمـان تـرك أثـراً بالغـاً في حياتـه دفعـه إلى تغيـير تخصصـه إلى تخصـص مغايـر حتـى أصبـح واحـداً مـن أشـهر أطبـاء النفـس، أغلـق عيادتـه ليكـون بـين المرضـى يقيـم معهـم هنـاك، في مدينـة الخانكـة أمضـى حياتـه متنقـلاً بـين الاطمئنـان علـى أسـرته والحيـاة الكاملـة داخـل المصحـة، هـؤلاء المعذبـين كل منهـم حكايـة تمشـي علـى قدمـين، هنـا يكمـن الحرمـان، يتشـابه مـع ملـك المـوت في أشـياء كثـيرة، في المصحـة حرمـان مـن العقـل ومـن الحيـاة، هـؤلاء أرق البشـر شـعوراً وإحساسـاً، تناوبـت عليهـم صدمـات فاقـت قدرتهـم على الاسـتيعاب، منهـم مـن لم يتحمـل فـراق الأحبـة، كلمـا انفـرد بنفسـه عاودتـه الهواجـس والوسـاوس عـن قصـة الخلـق والحكمة

مـن الألم، ذات الألم قادهـم إلى المصحـة، هـؤلاء المعذبـين في حياتهـم ومـن أسـرهم، تنقـل مـن حكايـة إلى حكايـة، لا يبيـت ليلـه إلا ودمـوع العـين تسـابقه ويظـل السـؤال يـدق رأسـه بقـوة عـن جـدوى الحيـاة بـلا حيـاة، يـوم في الأسـبوع يكفيـه لزيـارة أسـرته وأسـرة هالـة، يتجـاذب مـع إبراهيـم أطـراف الحديـث ويتواصـل مـع صديقـه سـليم طـه، يطمئـن عليـه بعـد أن انقطعـت أخبـاره بشـكل مفاجـئ، يبـدو أنـه قـد تـزوج، يهـوى القـراءة والأدب ويكتـب القصـة والروايـة، فكـر أن يلتقـي بـه يحدثـه عـن الحـب، كاتـب بـارع يصـوغ مـن الحـروف كلمـات ومـن الكلمـات أشـواقاً وعناقـاً، ينقلـك إلى الجنـة والنـار في لحظـات فتسـلم لـه قيـادك، راح يبحـث عـن تليفونـه بـين الأوراق ومازالـت مسـألة المـوت والحيـاة تؤرقـه، يفكـر في صياغـة أو عقـد جديـد بـين الخالـق والمخلـوق يخفـف بـه حـدة الحـزن عـن الأجيـال القادمـة أو الخلـق القـادم، فهـل يوفـق في مسـعاه ؟

١٠

لم تنقطع العلاقة بين داليا وبين سليم وقد مر على انفصالهما سنوات، شيء يحدثه أنه سيعود إليها، لم يستوعب فكرة الطلاق وتساءل الناس : كيف ؟ أنكر عليه البعض أن يطلقها، تغيرت داليا تغيراً جذرياً، بين الحين والآخر يلمح سيارتها وقد توقفت بجوار بيت أسرتها، حريص على ألا تراه، لم ينس حديثه عنها في كل مكان ومحفل ومقر حتى أشفق عليه كل من عرف حكايته لتستقر في بيتها حريصة على إخفاء خبر زواجها وطلاقها، فهي الأرملة التي توفى عنها زوجها وترك لها أيتاماً لتربيهم وحرمت نفسها من نعم الحياة، مع أنها ورثت فيلا بأحد المدن الجديدة، لابد أن في الأمور لغزاً محيراً دفعها للإقامة في شقة صغيرة بالطابق الخامس في بيت متهالك بلا مصعد! هنالك سر !

لم تطل به الحيرة وقد أسلمته الصدفة للقاء خالها :

— خير لها أن تتزوج ..

– ممن تتزوج ؟ ماذا تقول ! طلقناها لتتزوج من آخر ! العودة إلى زوجها خير لها، على الأقل عرفناه وعرفته .

أراد الخال أن يلمح بإمكانية عودتها إليه لكن ما حدث ترك في نفسه جداراً يحول بينها وبينه وأثراً لن ينقضي ..

– وكيف حالها الآن ؟

– كما هي ..وكما تعلم .....

– أعلم ماذا، منذ افترقنا لا أعرف عنها شيئاً !

– المرحوم عاصم توفي في حادث سيارة وفي دولة الإمارات التفت حولها النسوة يواسينها ومن الرجال من يسر لها الإجراءات ومُنحت معاشاً استثنائياً، هؤلاء يزورنها بين الحين والآخر يضعون بين أيديها مبلغاً من المال ليس بالقليل مساهمة في تربية الأولاد.

استمع سليم في ذهول لما يقوله الخال وعاد بالذاكرة سنوات: تذكر ضيف الإمارات الذي حرصت على إبعاده عن البيت من أجله، يا لها من امرأة ! ماذا كانت تريد، أإلى هذا الحد تغيرت ! فضلت عليه المال، وتصر على الإقامة بشقتها الصغيرة، كيف ضحت بزوجها ورغباتها وبيتها، كيف أماتته وبعثت من مات للحياة من جديد! الأمر بات معقداً لم يستطع استيعابه وآثر إنهاء اللقاء وقد زاد اقتناعاً بعدم العودة إلى تلك التي كانت زوجته، لكنه

الحب مازال بعض منه عالقاً في القلب، لم تشعر بالذنب تجاه من أحبها ولم يتخل عنها إلا مرغماً، دفعته كرامته دفعاً للنطق بكلمة ارتج لها قلبه كما ارتج أولاً وهو يضع يده في يد الشيخ عبد الودود حين قال : وأنا قبلت زواجك من ابنتي، لم تكن بكراً ولا رشيداً ومازالت سادرة في غيها تتلقى الأموال من نساء الإمارات وبسيارتها تتنقل بين بيتها وبين بيت أسرتها وتذهب للعمرة، الأمر بات مستفزاً بعد أن عرف الجميع قصتها، حكاية حب من طرف واهم، راودته نفسه أن يعلن الحقيقة في مواجهة كل من صدقها وتصور فيها البراءة، في الكلية ولدى المحيطين بها، ود لو عرف طريقاً إلى الإمارات ليخبرهم بالحقيقة ويعلن أن تلك المرأة تزوجت وطُلقت من زوجها، مؤكد غير طبيعية وهل يبيع أحد سعادته من أجل المال ! أسئلة كثيرة أطاحت به نقلها إلى أصدقائه ومعارفه، عرفوا حكايته وتعجبوا من أمر تلك المرأة ومن الحب، استمع إليه أحدهم في حنق بالغ، لم يرقه إخفاء أمر زواجها وقرر أن يشارك سليم مشاعره وطلب صورة من وثيقة الطلاق وبعض البيانات ليفضح ما حرصت على كتمانه ثأراً لصديقه .

استمرت حياة سليم متنقلاً في المسافة بين أيامه وذكرياته وعمله، يتأمل في صمت، لحظات الفرح لم تصادفه في حياته، يرجو الاستقرار ويملؤه الحنين إلى ممارسة الحب وان تكون في حياته امرأة، افتقد ناهد كثيراً، تلك المرأة التي أحبته

بصدق، لم تخدعه يوماً وأخلصت له حتى وهي على ذمة رجل آخر، لا وجه للمقارنة بينها وبين داليا، تزوجها وهي علي ذمة رجل مات.

باتت حياته كالكلمات المتقاطعة قطعها رنين التليفون المتواصل :

— الأستاذ سليم طه ..

— أفندم ..حضرتك من ؟

— رائد حسام حلمي من حرس كلية الفنون .

— أهلاً وسهلاً .

— أدعوك لتناول فنجان شاي بمكتبي .

— وما المناسبة ؟

— خيراً ..لا داعي للقلق ..

غادر سليم مكتبه متوجهاً إلى الكلية وقد اعتراه بعض القلق متسائلا : ماذا يريد هذا الرجل وما علاقته بالفنون ! تراءى له طيف داليا، الوحيدة التي يعرفها في كلية الفنون ولدى الباب توقف برهة يلتقط أنفاسه ويسأل عن مكتب قائد الحرس:

— تشرفت بك .

— الشرف لي يا فندم .. خيراً .

— كلما حدثت مشكلة استدعوني لحلها، بالأمس طلب مني عميد الكلية حل المشكلة بينك وبين الدكتورة داليا .

— لا مشاكل بيننا ..

أمسك الضابط صورة وثيقة الطلاق ملوحاً بها في يده :

— ما رأيك ؟

— خاصة بي وبها، وماذا في ذلك !

— من جاء بها إلى الكلية ؟

— لست معكم حتى تسألني ! يمكنك سؤالهاً، حتى الآن لا أعرف حجم المشكلة ؟

— اعتقد أنها أخفت موضوع زواجها عن الناس ..

— الزواج كالطلاق لا يعيب صاحبه، كلاهما في حاجة إلى إشهار وإعلان، هكذا علمنا الدين .

— الدكتورة منهارة وقد ارتفع ضغطها، هي لا تستحق كل هذا، أرجو تسوية ما بينكما من أمور .

— انتهت علاقتنا منذ سنوات .

— صورة قسيمة الطلاق أُرسلت للناس على عناوينهم وفي كل المكاتب، حتى مكتبي !

– الزواج والطلاق في حاجة إلى إشهار .

– من أرسل وثيقة الطلاق إلى هنا ؟

شرد سليم قليلاً وهو يردد :

– لا أعرف .

– على أي حال لو توصلت إلى شيء اتصل بي ..

غادر سليم وفي حلقه غصة، هل أخطأ عندما أعطى صديقه صورة وثيقة الطلاق ؟ إن كان هو الفاعل فمؤكد أنه شريك له فيما سببه من ألم، مهما كان الأمر، مازال لها في القلب مكان وبينما هو في الطريق تناهى إلى سمعه رنين التليفون إذ جاء صوتها منتحباً : حرام عليك .. حرام، لم أتصور أنك بهذا السوء، انقطع الاتصال والتواصل بينهما فترة ليست بالقصيرة راح خلالها يتلمس أخبارها، يرجو لقاءها ولو لحظة عابرة، يتأمل حاله وحال من أحب، يجد عزاءه في الشعر، أشعار المجنون كادت تفقده عقله، تنقل بين الشعراء العشاق مترجلاً في بساتين الشعر العذب، ما أجمل الحياة مع من تحب فوق الأرض أو تحتها، الأمران يستويان، اشتعل الشوق داخله وانصهرت مدامعه وهو يدرك أنها ظلمته ويدرك أيضاً أنه لا غالب ولا مغلوب في الحب فالمشاعر لا تعرف المعارك وقد أسلم القلب قياده لمن أحب ..

١١

على مكتبه جلس يتأمل ما مر به من عذاب ولوعة واشتياق، فكر في الحب، هل هو حقيقة أم درب من دروب الخيال ؟ ربما كان حالة مرضية تصيب الجهاز المناعي في مواجهة شخص بعينه، أي مناعة وابنة الشيخ تسكن أمامه، لم يتحدث إليها إلا مرات قليلة، كيف وقع الحب في قلبه واستقر بين القلب والوريد سنوات إلى أن تزوجت، تغيرت الفتاة البريئة التي تجفل من صوت الرجل وتشتاق إليه في اللحظة ذاتها، كيف تغيرت، كيف يمكن أن تتحول الطفلة إلى مراهقة إلى فتاة خجول عذراء، كيف تتحول إلى امرأة ممارسة الجنس عندها أهم من الطعام والشراب، أن تتحول البراءة إلى شراسة، كيف يمكن لمفردات الشعر أن تتحول إلى مطالبات وثورة، كيف استيقظت الأنثى داخلها وتحول الصوم والصلاة إلى اعتياد على أوضاع محرمة، شريط ذكريات مر به وقد ضل الطريق إلى أيامه القادمة، تُرى هل تمردت داليا على الحياة معه وفضلت المال مع الحرمان، مؤكد أنها تعاني العذاب كل يوم، جسد المرأة لا يرحم، يفرض سطوته على العقل وينتصر في أي حوار لكنها تكابر،

تكفيها السيارة والفيلا التي لا تعيش فيها، هي أيضا في حاجة إلى من يقودها ويزودها بوقود الحب ولما وقعت في قلبه الحيرة فكر أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض، إلى ما وراء الغيب، تذكر عرّافة الهرم، اشتاق إلى صوتها يخبره، صدق حدثها إلى حد بعيد، هل استطاعت تجنيد الجان في أعمال الجاسوسية لينقل الأخبار إليها، كيف يخترق حجب الغيب ؟ توجه إلى موقف السيارات يسابق خطاه إلى بيتها، على ظله كاد يقع، هبط مهرولاً يتأهب لعبور الطريق، سيل من السيارات وتيار من الخلق لا ينقطع، لا أحد يتوقف لأحد، مرت دقائق فكر خلالها في عبور الطريق ليلقى العرافة إذا كان له عمر، استجمع شتات نفسه لتنزلق قدماه إلى شارع منحدر ولدى الباب انتابته حالة من الدوار، رائحة الصمت والرطوبة هبت من الداخل، بادرته بعينها تسأل عن المجهول :

— كيف حالك ؟ لم تتزوج بعد .

اقترب منها في مودة :

— أرجو ذلك ..

— ألم أقل لك ستتزوج من النساء ثلاث ؟

— سأسلم بما قلت، ولكن ماذا وراء الغيب !

— آنا لا أعلم الغيب ..أقرأ ما هو مرسوم أمامي ..

- مع أنك لا تفكين الخط !

- ومن أدراك، ألا تعرف أنني اقرأ الكف ! كل رسم وكل حرف له معنى ومغزى ومن يهمس لي به أنا الذي اسمعه .

- وفيم كان الهمس !

- المستقبل أمامك، سيكون لك مجد وشهرة .

- أنا !

- هل كذبت عليك ؟ ماذا تعمل الآن ؟

- عملت في المحكمة في البداية والآن أعمل بأحد الأجهزة الرقابية ..

- عتبة حكومة كما قلت لك قبل سنوات ..

- ومن أين يأتي المجد والشهرة وأنا موظف على باب الله .

- ربنا يكرمك ولكن احذر النساء، سيكون لك طفل للأسف ابن حرام !

أصابته الدهشة وجحظت عيناه : ابن حرام مرة واحدة! مؤكد أنه داعر ولا يدري !

— تأكدي قبل أن ترمي الناس بالباطل .

— اقرأ ما أمامي والعلم عند الله .

— سأزيدك من الشعر بيتاً، ستفوز بجائرة وسيأتيك رزق وفير، الفنجان لا يكذب .

لم يكن أمامه إلا التصديق، لماذا تكذب وما مصلحتها، وفي خضم الأنباء المقلقة التي حملها الجان نسي أن يسأل عن ابنتها، كيف حالها، وأين هي الآن ؟ غادر المكان وقلبه يخفق بالأمل والتشاؤم، يبدو أن الأيام تتوعده بالمجد والشهرة وولد ابن حرام، من تكون أمه ! فضاء من الحيرة سيطر عليه وهو يهرول مسرعاً عائداً إلى بيته، اتصل بشقيقته يخبرها بما كان، ليت داليا تعلم ما قالته العرافة، ألم تفضل المال على سعادتها، في داخله شيء، يود لو شعرت بالندم وبأنه لم يخطئ في حقها، يحبها وهى التي أضرمت النار في قلبه وتركته بين الموت و الحياة .

مرت سنوات تنقل فيها سليم من علاقة إلى علاقة، كلما ضاجع امرأة تذكر ما أخبرت عنه العرافة والغريب أنه لجأ إلى من يفتح الكتاب، قابله محض صدفة ليؤكد له ما يقلقه، بين الحين والحين يداعبه الحنين إلى داليا فيتعمد السير أسفل بيتها ناظراً إلى أعلى ربما لمح طيفها في شرفة البيت كما كان يفعل قبل خمسة عشر عاماً، فكر واهماً أن يحرمها من رؤيته وهى لا تبالي ولا يدور في رأسها شيء من

هـذا، يبـدو أنهـا اكتفـت بتربيـة أولادهـا وتلقـي المنـح والعطايـا مـن الإمـارات، انقطعـت أخبارهـا فـترة وعـادت الأخبـار تتناثـر هنـا وهنـاك فمـن قـال أنهـا مريضـة، هـو علـى يقـين مـن حاجتهـا للعـلاج النفسـي، اتسـعت دائـرة الشـك حـول حقيقـة مرضهـا، نـوع مـن الهلوسـة السـمعية والبصريـة، نـوع شـائع مـن الأمـراض النفسـية زادت حدتـه، مـرض غريـب أصابهـا وغـير حالهـا، مشـتتة الفكـر، كثـيراً مـا توهمـت أن هنـاك مـن يطاردهـا وهـي تقسـم أنهـا تـراه رأي العـين ومـن يهمـس في أذنيهـا، شـعر بالحـزن، فكـر أن يزورهـا، حـاول أن يقـرأ عـن المـرض وعـن الوجـه الصبـوح كيـف أصابـه الوهـن !

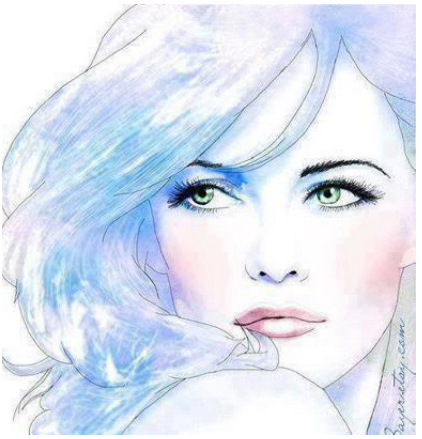

١٢

تواترت الأنباء حول مرض داليا، هل هو مرض نفسي أم عضوي وفي كل الأحوال ظلت تترد بين بيتها وبيت أسرتها وبين عملها بكلية الفنون وسليم لا يكف عن متابعة أخبارها، حسبه أنها على قيد الحياة، لم يستطع الارتباط بغيرها وبقايا الحب مازالت تداعب القلب، تستثيره بين الحين والآخر وقد تقدم به العمر، في العقد السادس يعيش مع قلبه الجاني والمجني عليه وحيداً ثم تأتي العرافة بنبأ من وراء الحجب عن طفل له سيكون إن شاء الله ابن حرام! استغرقه العمل متنقلاً بين المحافظات والناس تسأل: ما لهذا الرجل لا يريد أن يتزوج ! تذكّر العرافة وابنتها أمال وكيف جاءت إلى بيته تعرض عليه الزواج حين تقدم لها نبيل، لم تحبه ولم تكرهه ولكنها بحاستها الأنثوية رأت عنده الأمان، لقد أحبت طارق وتخلى عنها بعد أن نال بعضاً منها برضاها وها هو نبيل يتركها ويتزوج ممن رافقها سنوات، مرشدة سياحة ومطلقة، تنقلت معه من مكان إلى مكان حتى السحاب، هناك حلقت وأذاقته الحب ألوان حتى ما عاد يذكر زوجته بعد أن أرسل إليها

ورقة الطلاق، آمال تبحث عن الحب، تريد الاستقرار في بيت وبقدر ما فرحت بابنتها بقدر ما أصابها الحزن في مقتل أطاح بوجدانها وأحلامها وفكرتها عن الزواج بعد أن دمر طارق فكرتها عن الحب والحقيقة لم تهنأ آمال يوماً مع من أحبته ولا مع من تزوجته بعد أن شردت أمانيها حين عرضت على سليم الزواج فرفض، مازالت في بيت أمها تتابع سحب الدخان وفناجين القهوة من حولها، لا تبرح مكانها، تنتظر ما تجود به السماء، لا تصلي والعرافة كذلك ! لمن تصلي ؟ كم تغيرت آمال، تجعد شعرها وأحاط الشيب من كل جانب رأسها التي باتت تظهر بصعوبة وانحناءة من عباءة ترابية اللون تذكرها بالموت، فارق كبير بين حياتها مع زوجها وبين حياتها مع أمها وسط البخور ورائحة القهوة ونسوة زائرات مغادرات في ملابس تشبه الملابس، أرامل ومطلقات وساقطات يتسترن بالزواج العرفي و يتقابلن في هذا البيت سراً .

تعددت الفناجين والأهواء شتى فلا مكان للحب وإنما علاقات وسهرات وأعياد ميلاد، بين سحب الدخان وجدت آمال في حجرتها الملاذ لكنها لم تستطع استيعاب ما حدث، سنوات من عمرها مرت، لم تشعر أنها أحبت ولا تزوجت ولا أنجبت وما بقي لديها من عقل رفضه سليم، ليته ما فعل !

خصلة وراء خصلة من شعرها راحت تنزعها بلا وعي حتى خلت مساحات ظاهرة من رأسها وتناوبت عليها

الخيـالات وهـي تجلـس في مواجهـة الطبيـب ضاحكـة :

— كم أنت رائعة .

— يجبر بخاطرك ربنا .

— نعـم، أنـت لا تعرفـين قيمـة نفسـك، مـا حـدث قـد حـدث لغير ك

ارتسمت على زاوية فمها ابتسامة ساخرة :

— لماذا تضحكين ؟ أهناك سبب للضحك ؟

— قـد يكـون الضحـك بـلا سـبب إذا كانـت الأسـباب أكـبر مـن أن تذكـر .

تمـادت آمـال في الابتسـام حتـى ضحكـت ثـم تعالـت ضحكاتهـا وراحـت تضـرب كفـاً بكـف، كان لابـد مـن بعـض المهدئـات أشـار بهـا الطبيـب .

تابـع سـليم أخبارهـا بعـد أن زادت حالتهـا سـوءاً وزادت فـترات عزلتهـا وحزنهـا بعـد امتنـاع ابنتهـا فـرح عـن زيارتهـا لتبقـى في حجرتهـا تتصـل بسـليم وتتابـع بعـض مـا يكتـب، تعـرف حكايتـه، أعجبهـا فيـه عزيمتـه وإصـراره علـى أن يكـون لـه مـكان، تبـادلا السـؤال حتـى عرضـت عليـه الـزواج مـرة أخـرى وهـو يتـوارى خلـف الكلمـات وينمقهـا في إجابـات لا تنتهـي إلى شـيء، لم تكـف العرافـة عـن ضـرب الـودع واللعـب بالبيضـة والحجـر، لا يقـف في طريقهـا شـيء أو أيـة مـن آيـات

الذكر الحكيم التي دأبت على الاستماع إليها كنوع من إضفاء الرهبة على الأتباع والمريدين، كم فرقت بين المرء وزوجه وحتى تطمئن على ابنتها راحت تعد العدة وتقرأ من التعاويذ أنواع ولأيام متتالية وتضع من البن قدراً تقرأ عليه بعض الطلاسم وتقدمه إلى دياب، عامل بشركة الدخان اعتاد المرور عليها ليطمئن على مقبل الأيام، ذاق طعم القهوة، ينتابه صداع رهيب إذا انقطع عنهم يوماً وميل غريب لأمال، وكلما تعددت الفناجين زاد الشوق، لم يتغير المذاق لكن دياب أصابه التغير، ساءت العلاقة بينه وبين زوجته حتى ألقى عليها يمين الطلاق وجاء يسعى إلى بيت العرافة وبجوارها ابنتها تناوله فنجان آخر, اختلطت عليه الأفكار، يريد الزواج بالعرافة التي تكبره بعشرين عاماً، ضحكت ملك كثيراً في تلك الليلة وهي تستمع إليه وقد مد ذراعيه وبسط كفيه معبراً :

— لا أطيق البعد عنكم، أنا منكم

انهمك في إعداد الفناجين والبخور وسائر الأعمال بل عمد إلى استقبال الزبائن، أكثرهم من النسوة جئن مهنئين دياب بزواجه من آمال أبو الفضل .

تناهت الأخبار إلى أسماع المشغول في عمله متجولاً بين المحافظات مما عرّضه لكثير من العلاقات لكنه ابدأ لم يسع إلى أي علاقة متذكراً ما قالته العرافة، قد يضعف أحياناً مكتفياً بالقبلات، أثارته علاقات الحب والوصال وكل من بات دامع العين والقلب، هو منهم رغم بعد المسافة، من القلب للقلب رسول وطريق من نور ومهما بعدت المسافة الشوق يقطعها في ثانية، أحب سليم الحب لذاته وطيف داليا يزوره بين الحين والحين، ود لو سألت عنه، وفي خضم الأحداث داعبه الحنين لعمله القديم في الصحافة والكتابة، مازال لديه مخزون يملأ قلبه ووجدانه، أحرف وكلمات وجمل وظلال وأشجار وأقلام وأوراق وحنين لأيام خلت وسنوات مضت، حملها قلبه المرهف مع ذكريات البيت القديم وشارع هارون .

كتب أول قصة حب في حياته وكلما كتب ازداد دراية وعمقاً، لم يشغله حبه عن الناس، وجد في همومهم ما يفوق آلامه، كتب عن المهمشين والمحرومين، فقراء الوطن الجريح، لم يتوقف عند هذا الحد، تغيرت حياته وأصبحت القراءة والكتابة همه الأول ليعيش في بيته بين جدران أربع وعشرات الكتب والمراجع ومازال يكتب من الحياة قصة وحكاية قد تتطور إلى رواية تحمل اسماً أو معني جديداً

١٣

لم يكن هناك جديد في حياتها، تعيش مع زوجها وكأنها تعيش، تتنقل بين البيت والعمل ورعاية طفلها، يحمل من ملامحها الكثير وهو السبب الذي أخلصت لزوجها من أجله، لو لم تنجب لتمادت في علاقتها بسليم، طلب منها غير مرة أن تمنحه من وقتها وجسدها ومازالت ترفض وفي لقاء عابر حرصت على ألا يراها أحد :

— لا يمكن .. ماذا تقول !

— أنا عاقل جدا وأعي ما أقول ..

— ما تطلبه هو الجنون بعينه، قبل زواجي من صلاح كانت لنا علاقة، لم يملأ عيني أحد غيرك، لم يمنعني زوجي عن أي شيء، وثيقة الزواج بيننا مجرد ورقة ولما طُلقت منه لم أمتنع عنك وتمنيت أن أعيش تحت قدميك، لكنك تركتني وركلتني بعد أن بُحت لك بسري وما أحمله في قلبي، توقعت أن تحتويني بصدرك وعقلك، أعلم أنك تكبرني بأربعة عشر عاما لكن حبي لك يفوق الخيال ..... لن تفهمني .

— بل أفهمك جيداً، لماذا تصرين على الرفض !

— بالأمس كنت لك وأقسمت ألا أكون لغيرك ولكن ماذا أفعل أمام صدك، هل أبقى بلا زواج وأُحرم من أن أكون أما ؟

— لا .. لم أقل هذا، على أي حال ..كما تريدين ..

— هكذا أنت، دائماً ما تشعرني أنني لا أهمك، أحببتك لدرجة العشق ولم تحبني يوماً، ربما رغبت في التواصل والإشباع العاطفي، قد عرفت الحرمان مثلك وأصدقك القول لازلت أعاني منه حتى الآن !

— وزوجك ؟

— تعرف مشاعري نحوه والأمر يا صديقي ليس بيدي، يصيبني القرف حين يقبلني ولك أن تتخيل الباقي !

— أريدك معي كما كنا بالأمس ..

— مستحيل، وثيقة زواجي لن تمنعني أن أكون لك لكن شهادة ميلاد ابني ستقف حائلاً بيني وبينك طول العمر .

— وأنا اقدر ذلك ..

— سليم ..أرجوك .. اسأل عني فأنا ُاحبك رغم كل شيء .

تنقل سليم من علاقة إلى أخرى وقد مر في طريقه بعلاقات عابرة لم ترق إلى الزواج ليواصل حياته وحيداً حريصاً على

رؤيـة ناهـد والاطمئنـان عليهـا، انتقـل إلى إدارة أخـرى وهـى تتابـع أخبـاره علـى فـترات، قـد لا تـراه إلا مصادفـة علـى مـدى شـهرين أو ثـلاث لكـن المـرة هـذه اشـتاقت إليـه، سـألت عنـه وراحـت تسـتقي أخبـاره فقد شـاعت قصتها في جميـع الإدارات، كل مـن عـرف الحكايـة أصابـه الحـزن، المـرأة الوحيـدة الـتي أحبـت بصـدق، أقـر سـليم بذلك أمـام كل النـاس ولامـه أكثرهم: كيـف يـترك حبـاً نـادراً لـن يصادفـه ولـو في الجنـة، لم يكـن سـليم مواظبـاً علـى الصـلاة ولديـه إيمـان راسـخ أن كل شـيء في حياتنـا بمقـدار، أخـيراً اهتـدى وسـلم بحبهـا وتمنـى أن يعيـش معهـا ولـو يومـاً واحـداً، تلـك المـرأة الـتي أخلصـت في حبهـا إلى أبعـد مـدى، تتمنـى أن تكـون لـه كل ليلـة، إخلاصهـا لابنهـا منعهـا، رفضـت أن تطعنـه في أمـه أو تصدمـه، زوجهـا ممكـن أن يرحـل أو يطلقهـا أمـا ابنهـا سـيظل ابنهـا حتـى بعـد المـوت .

انقطعـت أخبـار سـليم فلـم تعـد تـراه إلا لمامـاً ومحـض صدفـة، شـعرت بالقلـق وقـد تقـدم بـه العمـر لكنـه ظـل كمـا هـو ببشـرته السـمراء وطيبـة قلبـه، الأيـام تمـر والقلـق يعتريهـا، اضطـرب قلبهـا ولم تسـتقر عيناهـا بعـد أن أشـاعوا أنـه مريـض، لم تصـدق، كيـف يمـرض ! ليـس مثلنـا ! وتناثـرت الأقاويـل، أوجـاع في الجسـد لا أسـاس لهـا، ومـاذا بعـد ؟ لا شـيء، لديـه إجـازات، يبـدو أن الإجـازة طالـت، أجـرى بعـض الفحوصـات وينتظـر النتيجـة ومازالـت ناهـد تنتظـر والشـوق يزيـد .

١٤

تابع الدكتور جلال حالة المرضى والمصابين الجدد وتطور كل حالة، مر بالعنابر، كل سرير يحمل حكاية عمن غيبه المرض ونُقل إلى هذا المكان في أطراف المدينة، المصحة فيها كل شيء، لا يحتاج المريض إلى الانتقال خارجها فالإقامة كاملة والعلاج بالمجان والحالة النفسية أخطر ما في الأمر، بالعلاج يمكن أن تستقر حكايات كثيرة زادته ألم على ألم وقد حرص على أن تكون المصحة شباكاً للأمل يطل منه المرضى على الحياة، حكايات كثيرة يحمل كل منها رقم وملف وأوراق راح يتأملها ويحمد الله على كل حال، حرمه القدر من حبيبته فآل على نفسه مساعدة كل محتاج وكل من حُرم من الحبيب، انقطع للعمل في هذا المكان البعيد عن العمران، مساحة هائلة محاطة بأسوار وأشجار طرحت أوجاع تكفي الكون، انتقل الألم النفسي إلى سائر الأعضاء وتشارك الجميع في معزوفة شاركهم فيها وخفف عنهم وخالط المريض قبل السليم فالعمر واحد والرب واحد، بين الحين والحين يقرأ قصة أو رواية تنقله إلى عوالم أخرى سعياً للتغيير ودفعاً للملل، تذكر صديقه سليم طه وقد تنقل

من حال إلى حال، شخصية سليم شخصية مثيرة لا يقف طموحه عند حد، عرفه جلال بحكم الجيرة وصداقة الشباب الأول، عمل بمهن كثيرة فهو المدرس والصحفي وحارس الأمن ومدير المجمع الاستهلاكي وأمين المكتبة والعامل في محل البقالة وهو نفسه سكرتير التحقيق بالمحكمة والذي تنبأ لنفسه قبل أن تتنبأ له العرافة ملك قبل ثلاثين عاماً أن يكون كاتباً وأديباً يشار إليه بالبنان، ها هو يكتب القصة والرواية، كثيراً ما حدثه عن انتقاله من عمل لآخر حتى انقطعت أخباره وعن طريق صديق مشترك تواصل جلال معه عبر الهاتف :

— سليم بك ...

— من يا تُرى ؟ الصوت ليس غريباً ..

— جلال فوزي، دكتور جلال .

— أهلاً جلال، أخبارك ..

— ليتني أراك في أقرب وقت ..

ظل جلال مقيماً في المصحة لا يعرف الطريق إلى بيته إلا يومي الخميس والجمعة، رافضاً كل ما يُعرض عليه من فتيات، لم يرفض فكرة الزواج لكنه آمن بالحب، تجربته مع هالة وحرمانه منها غيرت حياته وحولته إلى إنسان آخر، يرجو الخير للناس جميعاً : شدة الألم تهذب النفس

والإغـراق في المتعـة يُذهـب العقـل، شـيء مـن الحكمـة آمـن بـه مهـد لـه الطريـق إلى الله، مضـى يطالع أحوال المرضـى، الجوانب الإنسـانية لا حصـر لهـا، علـى الأسّـرة ترقـد حكايـات ترويهـا دمـوع العـين، منهـا حكايـة حـب مـلأ قلـب هنـاء، تلـك الفتـاة القرويـة، جـاءوا بهـا منـذ أيـام بعـد أن تدهـورت حالتهـا، ولأن فـلان قلبـه وقلبهـا جـيران فقـد تقـدم لخطبتهـا واختارتـه مـن بـين عشـرات الرجـال لتنتقـل معـه إلى شـقة إيجـار قريبـة مـن عملـه وتمضـي حياتهـا رائعـة وبطنهـا يعلـن كل يـوم عـن لحظـة يخـرج فيهـا مـن رحـم الكـون كائـن جديـد، سـرعان مـا يشـعر بالحـب والكراهيـة، ربمـا يكـون عاشـقاً أو قاتـلاً أو واحـداً مـن الزهـاد والعبـاد، لم يمـض سـوى أيـام وقـد خـرج للنـور ما يشـبه النـور، أصيبـت بالفـرح وقادتهـا الفرحـة إلى مـا يشـبه الهـوس، لم تصـدق أنهـا أم وراحـت تسـتحث زوجهـا لتنجـب ابنـاً آخـر فجـاءت طفلـة أكثـر جمـالاً مـن كل أطفـال القريـة، لم تصـدق مـا هـي فيـه، اضطربـت أحوالهـا وعلـى أطبـاء النفـس طافـوا بهـا، وصفـوا الأدويـة، مـن يعطيهـا الـدواء إلا زوجهـا المشـغول بعملـه دائمـاً حتـى سـاءت حالتهـا وتدهـورت وراحـت تهـذي بكلمـات غـير مفهومـة، لجـأت لأسـرتها فأعادوهـا إلى بيتهـا مـرة أخـرى، وتدهـور الحـال أكثـر وذوى جمالهـا، تخـاف علـى أطفالهـا مـن الهـواء والذبـاب والطعـام والشـراب، عنايتهـا بهـم شـكلت خطـراً علـى حياتهـم، تحتضنهـم بشـكل مرضـي ليحـول زوجهـا بينهـا وبينهـم، وذات مسـاء حملهـا الجـيران

إلى المصحة المعبئة بنفوس حائرة لم تجد من يترفق بها، تغيرت هناء وملأ الشرود عينيها حتى ساءت حالتها، كان لابد من تعاطي العلاج بشكل منتظم، استدعاها جلال إلى مكتبه ودار حوار :

— لا يسألون عني، تركوني .. حرموني من أولادي .

بكت وجلال يهدئ من روعها :

— إن شاء الله تكوني بخير وترجعي لزوجك وأطفالك ..

— ورقة الطلاق أرسلها على بيت أهلي ! لم يبق لي غير الله، انقطعت عن عملي لسوء حالتي والمرض الذي لا أعرف من أين أتى ! الناس يفرون مني وكأني كلب أجرب ..

— روحك الطيبة أهم من كل شيء، تأكدي أن ما لك سوف يأتيك ولن يضار أحداً بأحد ما دمنا نتبع طرق العلاج .

— لا مكان لي خارج المصحة، أهلي لا يريدون رؤيتي، رؤسائي في العمل لم يترفقوا بي .. فصلوني .

— تحتاجين شيء ؟

— أرى أولادي ..

— ربنا يقدرني، لن نكون بخير إلا إذا ترفقنا ببعض ..

تنقل جلال بين الأوراق والحالات وترقرق الدمع في عينه وراح يقفز بخياله بين ميدان الإسماعيلية وشارع هارون وميدان الجامع وبيت حبيبته، وعاودته الذكرى : كيف حُرم منها، ما أقسى الحرمان على القلب الجريح، حُرمت هناء من أولادها وهم على قيد الحياة وحرمه القدر من هالة وهو على قيد الحياة، أي حياة هذه ! يا له من إحساس بالقهر ! تُقهر وعليك أن تضحك وتُقبل على الحياة وتستسلم لجلاد لا تراه، تدير له ظهرك ليجلدك مائة جلدة أو حتى ألف، قرأ عن السعادة كثيراً، لم يتصور جلال أن الحياة يمكن أن تحمل بين ثناياها كل هذا الشقاء، قد تكون الفجوة هائلة بين الفقراء والأغنياء لكن الألم هو الألم لا توجد فيه فوارق، الألم هو الوحيد الذي وحد بين الفقراء وبين الأغنياء، الألم ضروري، يهذب النفس ويرقق القلوب والمشاعر، هكذا نرى الناس في المصحات ودور العلاج المختلفة تسري بينهم روح التآلف، يملأ الصدق حياتهم، كيف يكذبون والحياة تقدم لهم كل يوم دليلاً على أن الله موجود .

شرد جلال قليلاً وتذكر صديقه، هذا الرجل شخصية محيرة، ترى ماذا يعمل الآن ؟ هل تزوج وهل مازالت علاقته بالأدب مستمرة ؟

استمر الدكتور جلال في متابعة التقارير وقد امتد به الليل إلى ما بعد المنتصف وهو في حال من الذهول ومازال يطالع قصص تفوق قدرة المرء على التخيل، لم تكن هناء هي

الوحيدة ففي كل عنبر قصة ولكل نفس حكاية : غريب أمر هذه الدنيا، نعشقها حتى الثمالة وحين تحدق بنا عين الغدر لا نطيقها، ما بين القيم والمثل نتنقل والسعيد من يمتثل لإرادة الله، عبثا حاول النوم، صراع كل ليلة بين النوم وبين اليقظة، آوى إلى فراشه ورنين التليفون مستمر :

— سليم بك، أهلاً وسهلاً ..

— أهلاً يا دكتور، كيف الحال ؟

— اشتقت إليك ..

— والله وأنا أكثر ..

— اتفقنا ..

— بعد الغد موعدنا ..

— في مصر الجديدة ...

— لا ... في الخانكة، انتقلت للحياة هناك ..

— مستحيل ! تترك مصر الجديدة لتعيش في الخانكة ! خير إن شاء الله !

— أنا في المصحة ..

— أي مصحة ؟

– مصحة للطب النفسي، أقيم هناك منذ عشر سنوات، اسأل مكتب الأمن، مكاني معروف .

شرد سليم فيما دفع صديقه للعيش هناك، سمع عن الخانكة لكنه لم يعرف طبيعة المرض ولا أعراضه، الأمراض النفسية ما أكثرها، شيء ما أرقه وشوّقه واستثار خياله دفعه إلى البحث والقراءة فلديه مخزون هائل من التجارب، يكفي ما يحويه قلبه من آلام لو عبر عنها ربما كان من أكبر الأدباء، بهذا الكلام أسر إلى داليا ذات لحظة بأنه سيكون له شأن في مجال الثقافة والأدب وإن كان على المال ما أيسر الحصول عليه بقليل من التفكير والعمل، يومها لم يكن قد فكر في الكتابة ولا أن يصبح أديباً، شيء بداخله يناديه، قبل ثلاثين عاماً، عمل في الصحافة وكانت له صفحة أثبت فيها نجاحاً وجدارة، أخبرته العرافة واستجاب القدر وترك عمله ليعمل في عتبة حكومة على حد قولها، يومها لم يصدق لكن الأيام قدمت له الدليل فهل تحقق ما قالته العرافة كاملاً ؟

شرع سليم في كتابة قصته، أول قصة حب في حياته سطرها بدمه ودموع عينه، تذكر كل من تركوه ورحلوا وقد أصبح اليوم بين جدران أربع، يبيت ليله والواقع يقدم له كل يوم قصة أغرب من الخيال، استمر في الكتابة، قصة تعقبها حكاية ليصدر أول مجموعة قصصية أتبعها بأخرى وثالثة فرواية رابعة، ويشرع الآن في كتابة روايته السادسة، يبدو أن كلام العرافين فيه شيء لله وتبقى الشهرة، لكنه

عـازف عنهـا رغـم علاقاتـه المتـدة بالوسـط الأدبـي والثقـافي، لا يفـرض عملـه علـى أحـد ولا يسـعى للعلاقـات سـعياً، شـغله الهـم العـام عـن همومـه بعـد أن غـيرت تجربتـه الأولى في الـزواج فكرتـه عـن المـرأة فاندفـع ينهـل منهـا، أي امـرأة مخلوقـة للمتعـة إلا داليـا فقـد خُلقـت لحـب توهمـه خمسـة عشـر عامـاً، ذلـك الحـب العـذري هـو مـا وقـر في القلـب وصدقتـه الجـوارح، حطمـه مـن ظـن يومـاً أنـه يحبـه، سـاءت الحالة النفسـية لسـليم بعـد انفصالـه عـن داليـا وتعـددت علاقاتـه النسـائية، لم يكـن الهـدف منهـا رغبتـه في ممارسـة الحـب بقـدر مـا كانـت هروبـاً مـن نفسـه إلى أي امـرأة تمثـل لـه الوهـم والكـذب والمشـاعر الزائفـة فيـأوي إلى نفسـه منقطعـاً عـن عملـه أيـام قـد تمتـد إلـي أسـابيع يعانـي خلالهـا حالـة مـن حيـاد المشـاعر، ازدادت قناعتـه بعبـث الحيـاة وزيفهـا وانتابـه نـوع مـن الاكتئـاب، لقـد تغـير سـليم طـه تغـيراً تامـاً ..

١٥

تذكر سليم موعده مع جلال لينطلق من بيته يسأل الطريق إلى الخانكة من أي اتجاه ؟ لم يكف عن السؤال، كلما سأل أحدهم تطلع إليه في ذعر حتى أشار عليه البعض من على البعد أن يسلك طريقاً وعراً سيراً على الأقدام أو ينتظر أي سيارة ضلت طريقها إلى هناك، وفي مكتب الأمن تكرر السؤال، سار في أروقة خلت من الأضواء تقريباً وسط أجواء تشي بالموت : كيف يقيم هنا ! الروائح داكنة عميقة وكأنها تتطلع إليك من طين الأرض، ظلال وأشجار وأحواض زرع باكية، لم تفلح في إشعاره بالأمان، مازالت الطرقات ممتدة انتهت بسلم خشبي عتيق ارتقى درجاته، ولدى الباب استقبله جلال، حجرة بسيطة بها مكتب معدني وسجادة بالية من عصور مضت ومروحة سقف تدفعك للدوار وسرير كان لونه أبيض، جلس جلال خلف مكتبه، آثر أن يموت ويحيا في هذا المكان وبين سؤال وجواب واستعادة ذكرى ما كان، رفض سليم أن يتناول أي مشروب :

— تبدو متفائلاً !

— تلك حياتنا وعلينا أن نعيشها .

— كيف وأنت بعيد عن الناس ؟

— أنا مع الناس وواحد منهم وما مر بي جعلني اقترب منهم أكثر .

— وماذا مر بك ؟

— ما مر بي لم يمر به أحداً ..

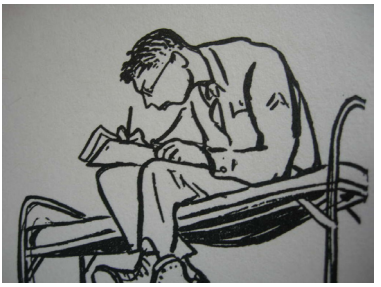

— لا تشكو للناس جرحا أنت صاحبه .. لا يؤلم الجرح إلا من به ألم .

— لا يعرف الشوق إلا من يكابده .. ولا الصبابة إلا من يعانيها .

— هههههه، نعم .. نعم ..هكذا يكون الكلام ..

— إن شاء الله تكون بخير، ولكن هل باستطاعتنا أن ننفصل عن الحاضر ونفصل أنفسنا عن ماضينا ؟

— لا أفهمك ؟ قل لي، ما الذي جاء بك إلى هنا ! إلى هذا المكان بالتحديد .

— حكاية طويلة .

— كيف ؟

— فاتنة من فاتنات الحي كانت تعيش مع أسرتها، شقيقها إبراهيم صديق لي، نافست المجنون في حبها وانتقلت معها إلى خارج أسوار الحياة المغلقة، خارج نطاق اللا معقول نحلم بالبيت والأسرة حتى تحقق الحلم، أحببت كل شيء فيها ودعوت الله أن يوحي إلي بأبجدية جديدة للعشق، كل ما في يحبها، بل يعشقها، درجة ما بين العشق والعبادة وبادلتني شوقاً بشوق أن تكون أماً، كاد الحلم يتحقق، تمثلت لحظة الميلاد في لحظة الموت ولسوء طالعي صادفني الوجه الآخر حين انتقلت إلى الجانب المضيء من الكون، لا أعرف كيف الوصول إليه، تمنيت لو كنت مكانها، ليته كان هجراً أو خصاماً، لوماً أو عتاباً لكنه الموت ! ألا تعرف معنى الموت، سليم : أجبني بالله عليك ..

ترقرق الدمع في عين جلال و لم تعد كافية كلمات الرثاء.

— البقاء لله، والله ما عرفت إلا الآن !

— لم أستوعب ما حدث وبعد مرحلة من التيه غيرت اتجاهي إلى دراسة الطب النفسي ووجدت في المصحة ضالتي، ما أجمل أن تخفف آلام المعذبين وتحنو عليهم وتترفق بهم لعل الله يترفق بنا، جعلت من روحي وما تعلمته صدقة جارية وأمل أقدمه لكل من حُرم من

الحـب أو ابتـلاه الله بالمـرض .

— لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، ومـا عليـك بهـذا، تـزوج يـا أخي

— وهل تزوجت أنت ؟

— ليت ما تزوجت ولا أحببت .

— إياك أن تقول .....

— بـل أكثـر، تذكـرت قصـص العشـق والغـرام، لم تنتـه أي قصـة حـب بالـزواج، لم يحـدث علـى مـر التاريـخ لكنـه الحـب، وبـين قبـول ورفـض تقدمـت لتباعـد بيننـا الأيـام وتتـزوج مـن آخـر سـافرت معـه إلى الخليـج وجـاءت بـه محمـولاً علـى الأعنـاق ليعـود مـا كان بينهـا وبيـني ومـا ظننـت أنـه الحـب وقـد أصبحـت أمـا لطفلـين، أحببتهـم فالحـب يجّمـع ولا يفـرق ولكـن بعـد فـوات الأوان، لم تكـن داليـا الأمـس .... تغـيرت !

— وماذا بعد ؟

— انتهي الأمر بناء على طلبها ..

— الطلاق والموت واحد ..

— فصـل الـروح عـن الجسـد صعـب، خسـارة، الحـب لا يعرف الفـوارق ولا المـكان ولا المكانـة الـتي دأبـت علـى الحديـث عنهـا، دكتـورة في الجامعـة ذات مـال ورثتـه عـن زوجهـا،

ابنـة الشـيخ عبـد الـودود تغـيرت يـا سـيدي ..

— قلت من ؟

— كما سمعت !

— اسمها داليا عبد الودود ؟ دكتورة !

— هل تعرفها !

لحظـة مـن الصمـت مـرت بينهـم وطالـت أكثـر ممـا يجـب قطعهـا جـلال :

— كان الله في عونها ..

— تعرفها ؟

— لم أعرفهـا بالقـدر الـكافي، لكـن مـا رويتـه عنهـا أريـد أن أسمعـه منهـا ربمـا سـاعدتك، لعلـك لا تعـرف أن سـعادتي في إسـعاد الآخريـن ..

أشـارت عقـارب السـاعة إلى العاشـرة موعـد مـرور الأطبـاء علـى المرضـى، أصـر جـلال علـى أن يرافقـه صديقـه وهـو يمـر بالحالـة الأولى والثانيـة وسـليم إلى جـواره وقـد اعـتراه خـوف ممـزوج بالشـفقة، كلمـا مـر بحالـة شـعر بنـوع مـن الانقبـاض، طرقـت الدمـوع أبـواب عينـه الخلفيـة في إصـرار وثـورة، حـاول بطـرف إصبعـه أن يمنـع دمعاً جـرى، اعتاد جلال تلك المشـاهد، أغلـب الحـالات الـتي مـر بهـا حـالات متأخـرة، هنـاك في نهاية

العنبر جلست امرأة تبدو عليها علامات الثراء، ذات وجه وردي وجمال فائت أتى بها أهلها بالأمس، ظلت طوال الليل تبكي، قدم لها الطبيب بعض المهدئات وتركها حتى الصباح، ترفض الطعام، هم سليم بمصافحة صديقه لكنه تراجع وهو يحملق في الحاجز الزجاجي الفاصل بين الحجرة والممر، مد عينه للداخل :

— من تكون هذه المرأة ؟

— بالأمس جاءت، حالتها النفسية متدهورة .

— من هي ؟ خبرني، رأيتها من قبل مراراً أو كأني !

— يمكنك الآن أن تغادر على أن نلتقي لاحقاً ...

— لن أنتظر، من هذه المرأة !

— دقائق وأعود إليك، ربما كنت تعرفها بحق .

في حجرة الاستقبال ظل منتظراً متسائلاً : لم آت إلى هذا المكان الغريب من قبل، أنا على يقين إنها معرفة قديمة، ربنا يسهل الأمور ويشفيها .

انتهى جلال من المتابعة وما زالت المريضة تبكي وقد وضعوا أعلى السرير ملخص بالحالة من حيث الضغط والحرارة والاسم ومتى جاءت وتوقيع الطبيب، ومن خلال الحاجز الزجاجي أشار لصديقه بالدخول وترك له حرية الانصراف، تردد سليم وتلعثمت خطواته وشعور بالانقباض ملأ صدره،

وجـه المـرأة مكفهـر، طـرق البـاب في همـس وألقـى السـلام :

— تفضل، الدكتور جلال انصرف منذ دقائق .

وقعـت عينـاه علـى ملخـص الحالـة، ابنـة الشـيخ عبـد الـودود ! مـن جـاء بهـا إلى هنـا ؟ لم تتعـرف عليـه في البدايـة، دمعـت عينـاه ولم يـدر بنفسـه إلا ويدهـا في يـده يقبلهـا، أفاقـت مـن الدهشـة وقبـل أن تسـأل تسـارعت الإجابـات :

— سليم : من جاء بك ؟ وكيف عرفت !

— أنا ..

بكـت وهـي تـروي مـا حـدث وكيـف باعـدت بينهمـا الأيام :

— الألم مـازال يقتلـني، تـرددت علـى الطبيـب ورويـت مـا مـر بـي مـن تجـارب، ومـا كنـت أراه ومازلـت مـن أشـياء لا وجـود لهـا في الواقـع ولـما زادت آلامـي لاحظـت ظهـور بقـع وبثـور وتـآكل في الأطـراف، الألم النفسـي قـد يـؤدي إلى المـرض العضـوي في كثـير مـن الأحيـان .

استمع سليم في تأثر وهو يدعو لها بالشفاء :

— لا أمـل في الشـفاء ولا حتـى في الحيـاة، انقطعـت عـن عملـي في الجامعـة لمـا كنـت أراه علـى وجـوه الزمـلاء ومـا كنـت اقـرأه في أعـين الطـلاب فآثـرت البعـاد، اعـترف أنـك كنـت أمـين علـي وعلـى أولادي، مـبروك، سمعـت أنـك أصبحـت أديبـاً، قـرأت اسمـك بالأمـس ولم أصـدق، كنـت علـى يقـين

أنـك أنـت، أتذكـر يـوم عانقتـني وواعدتـني ووعدتـني أن تكـون كاتبـاً وأديبـاً ؟

— نعم، لقد صدقت العرافة ..

— أي عرافة ؟

— حكاية قديمة، سأمر عليك بين الحين والآخر .

غـادر سـليم في حـال بـين الرثـاء والشـفقة وبـين مـا يعانيـه الإنسـان مـن مفاهيـم خاطئـة قـد تدمـر حياتـه أو تـودي بـه إلى الجحيـم، لم يصـدق أول الآمـر، منـذ فـترة طويلـة سمـع أنهـا مريضـة لكنـه لم يتصـور أن يصـل بهـا المـرض إلى هـذه الدرجـة، انصـرف إلى حياتـه متنقـلاً مـن علاقـة إلى أخـرى، غيرّتـه التجربـة، لم تكـن المـرأة إلا وسـيلة للمتعـة الخاليـة مـن المشـاعر والعواطـف، قـد يُقبـل إحداهـن مائـة قُبلـة دون أن يكـترث، قـد يحتضنهـا باحثـاً عـن المـوت أو ينـال منهـا باحثـاً عـن شـعور زائـف، شـعور يشـبه البطولـة أخفـق في تحقيقـه مـع حبـه الأول، انقسـمت حيـاة الأديـب بـين المثاليـة والعذوبـة، يكتـب عـن الحـب فينافـس الشـعراء العشـاق، مـع الفلاسـفة والشـعراء عـاش ومـا إن يغـادر القلـم حتـى يسـارع بالبحـث عـن تجربـة جديـدة تنسـيه مـا قبلهـا، شـتان بـين الواقـع والخيـال، بـين الحيـاة وبـين المـوت، يعيـش بـين الحالتـين ينقـل عذاباتـه متواصـلاً مـع جـلال يـزوره علـى فـترات متقاربـة بالمصحـة ونـادراً مـا يلتقيـان بمنزلـه .

١٦

توترت العلاقة بين ناهد عبد الكريم وبين سليم، بين شد وجذب وحنين ورغبة وأمل في تغيير موقفها، لم تعد تراه وقد انقطعت أخباره فترة لتعود تسأل وتطمئن عليه من خلال شقيقاته، الوحيد الذي غير حياتها من النقيض إلى النقيض، بدّل فكرتها عن الدنيا لكنه لم يستطع أن يغير قلبها ومشاعرها نحوه بعد أن أساء إليها مرات ومرات وهي في كل الأحوال لا تملك إلا أن تسامحه، كلما غاب اشتاقت إليه، حسبها أن تراه بخير، تسأل : ما باله قد انقطعت أخباره ! اتصلت بشقيقته ومنها علمت أنه مر بفترة عصيبة، لا يتألم لكنه حزين لما آل إليه حاله، حتى الآن لم يتزوج بعد تجربته الأولى وتريد أن تطمئن عليه، امتد الحوار حول القسمة والنصيب والجبر والاختيار : لو كان الأمر بأيدينا لاخترنا ما يسعدنا وما شقينا ابدأ، كل اختياراتنا محكومة بإرادة عليا وزّعت علينا الألم ووزعت علينا من السعادة قدر، انتقلت ناهد من حال إلى حال، أحيانا تتناوب عليها الأفكار تواسي نفسها وتعيد تقييم الأمور : قدمت له روحي فركلها بأعذار واهية وشيء مما

يقوله العوام عن الشرف وهو يعلم أنني أشرف من ألف امرأة، الظروف كانت مهيأة لعلاقة كاملة، كان مثالياً، وكذلك كنت أنا، لم أكن راغبة في التمادي معه ووضعت سري بين يديه فأطاح به ولم يقدر ثقتي، ليته ستر ما أسررت به إليه، ليته قدّر، اليوم أصبح لي طفل وبيت وزوج، قد لا أحبه لكنه يعفني بدرجة أو بأخرى، قد لا أكون راضية عنه لكنه أبو ابني الوحيد والذي جعل مني أُماً، أما قلبي فليس لي عليه سلطان، قلبي مع سليم، لقد نال جزاؤه ويعيش اليوم وحيداً، تألم كما تألمت، العدالة في الألم تريح النفس .

شعرت ناهد بالندم على ما فكرت فيه ودعت له بالخير، مازالت تذكر بيت أسرته وعنوانه، ألحت عليها فكرة وقد اعتزمت أمراً ؟

حالة من الأرق استولت عليها وهي ترقد بجوار زوجها، قلق هو بطبعه، حاول أن يكسر حدة الملل، داعبها باللفظ والإشارة وبأشياء لا يعاقب عليها القانون فاستدارت وولت وجهها شطر النافذة فتمادى في فكره المنحرف، شيء مقزز أن يطارحك الغرام من لا تطيقه، جو ثقيل ران على حجرة النوم، لم تغير ملابسها ولا بدلت عطرها وتلبستها حالة من اللامبالاة، تركته يفعل ما لا يروق لها، لم يشعر بما يدور في رأسها، استسلمت له في امتعاض وطيف سليم يراوحها، وما زال زوجها مصراً وهي تعارضه نفسياً، لم تعرف للنوم طعماً

أما هو فقد نام قرير العين حتى الصباح، تأهبت للخروج بعد أن اطمأنت على ابنها وانطلقت إلى عملها يسابقها طيف سليم، ألقت السلام واستقرت خلف مكتبها، رفعت سماعة التليفون تسأل في مكر :

— الأوراق تأخرت كثيراً !

— وماذا نفعل ؟ في انتظار الأستاذ سليم لتوقيعها .

— ألم يأت بعد ؟

— في الطريق .

— العمل متعطل أكثر من أسبوع !

— وهو أيضا منقطع عن العمل من حوالي أسبوع، سمعنا أنه مريض .

— الأمر خطير ..

— لا . .لكنه لم يشأ أن يفصح عن مرضه .

شعرت ناهد بالقلق ودعت أن يخفف الله عنه، لم يُسمع عنه أنه مريض، لا يطيق حتى الحقن، ممشوق القوام في اعتزاز، تمنت لو مرضت بدلاً منه، وقبل أن ينتصف النهار انطلقت إلى هناك، اجتازت الميادين والشوارع والحواري حتى وصلت إلى محيط سكنه، غاب العنوان عنها وعلى ضوء الذاكرة سارت وتلعثمت وتبعثرت خطواتها، لم تكن

خطوات الأمس التي تسير، وضعت خطواتها في قلبها، ها هو القلب يمشي على قدمين سعياً لمعذبه، تذكرت : آخر بيت في الحارة، على اليمين، ما تغير البيت ولا تغيرت الجدران، هي التي تغيرت، ليته كان معها بدلاً من هذا العذاب، لم تصدق يوماً أن هناك حب حتى أحبت، أعجبت بقصص العشاق وأطلقت زفرات حارة، تألمت لألمهم وسعدت لسعادتهم مع كل بيت شعر وكل كلمة وحرف وحكاية، تمنت أن تكون واحدة منهم، كتابة قصص الحب الخالدة كانت نذير شؤم على المحبين، لم تنته أي منها بالزواج، ها هو التاريخ يعيد نفسه، تغيرت وتعددت الأسماء وظلت دفقه القلب مستمرة عبر الأجيال، اقتربت من أول الحارة وتعلقت عيناها بشرفة البيت ربما رأته، تسارعت دقات القلب تسابق خطواتها وهي تصعد سلم حلزوني متهالك وأمام الباب وقفت تنتظر أن يفتح لها قلبه، مرت دقيقة ووقع خطوات بالداخل يقترب : لابد أنه مريض بالفعل، اقترب وقع الأقدام أكثر حتى فتحت شقيقته، أحبت ناهد من كثرة ما رواه عنها، عرفت قصتها من سليم و كيف أحبته، من يحب أخيها تحبه، دعتها للدخول وناهد تساءل الجدران بعينيها :

— كيف حال سليم ؟ سمعت أنه مريض، أين هو ؟

— الأمر بسيط لكنه آثر ألا يخبر أحداً، حساس بطبعه .

— حتى أنا ! أرجوك، أريد رؤيته .

— يمكنك الحديث إليه عبر التليفون :

استأذنت ناهد في الانصراف وانطلقت إلى الشارع لا تعرف كيف قطعت المسافة إلي بيتها، أغلقت حجرتها بإحكام تحدث نفسها عما يكون قد ألم به ورعشة من أصابعها تلامس أرقام التليفون :

— سليم ..... إن شاء الله تكون بخير .

— الحمد لله، ما أنا فيه جزاء مستحق، ظلمتك كثيراً، لا تحزني فقد عوضك الله بزوج وابن وها أنا ذا كما ترين لا بيت ولا زوج ولا ابن، أعيش بمفردي، هل هناك عدل أكثر من هذا، المساواة في الألم منتهى العدل .

انهارت باكية :

— لا تعذبني بكلامك، أين أنت ؟

— إذا تحسنت حالتي سأعود للعمل خلال أيام .

تواصل اللقاء بينهما في العمل على فترات متباعدة وكان التليفون هو الوسيلة الوحيدة الأكثر أماناً لتطمئن عليه وتتابع أعماله الأدبية خاصة روايته الأخيرة .

١٧

المصحة مزودة بمكتبة تضم مئات الكتب في مختلف أنواع المعرفة وقاعة سينما لدفع الملل بالإضافة إلى القصص والروايات وكتب أخرى مترجمة وقصص نجاح وتجارب مختلفة، كل الأنشطة متاحة، أقسى ما يؤثر في قلب جلال أن يموت مريضاً ويرفض أهله استلامه : ما أقسى القلوب التي ماتت وأصحابها على قيد الحياة، كثيراً من الحالات تتولى إدارة المصحة دفنها بعد إخطار وزارة الصحة، عالم غريب ذلك الذي نعيش فيه، نحن الذين جعلناه كذلك، تغربنا ونحن أقارب حتى ملأنا الاغتراب وتألمنا حتى استعذبنا الألم، تذكر صديقه سليم طه وقد أصبح اليوم أديباً معروفاً، يميل إلى أدبه، يمس الجانب الإنساني المهدر، يطيب له العيش مع الفلاسفة والشعراء العشاق، يحلق في الخيال أكثر من الواقع هروباً، اشتاق لسماع كلماته ومتابعة أخباره وتواعدا على لقاء في حديقة نادي النصر القريب من بيته بعيداً عن أجواء المصحة :

— أراك مهموماً ! سليم .....

– فكرة أرقتني وأنا استعيد ما مر بي وبها ...

– تقصد من ؟

– جميعهم ...

– يبدو أن المشكلة كبيرة ولابد من فنجان قهوة ...

– أرجوك ..

حاول جلال أن يقرأ وجه صديقه فلم يستطع بينما خيوط البخار المتصاعد من الفنجان تواصل طريقها إلى أعلى تتابعها عين سليم في هدوء :

– يا عزيزي الوهم كان كبيراً..

– لا أفهمك !

– أكثرنا ضحايا لمفاهيم خاطئة ..

– تقصد الحب ؟

– لا .. بل اقصد التقاليد والموروث المجتمعي وأثره على العلاقة بين الرجل والمرأة ..

– حيرتني ! ما علاقة الموروث والمفاهيم بما نحن فيه ؟

– ناهد عبد الكريم ..ضحية، وأنا أيضا ضحية ذلك الوهم الذي صور لي ما يسوءها، رغم أنها كانت طفلة وقتما تعرضت للاعتداء ممن لا ضمير له، جنح بي الخيال

وتصورت أشياء وأشياء باعدت بيني وبينها ...

تهدج صوت سليم ووومضت في عينه لمعة تشي بدموع حبيسة :

— لقد ظُلمت ناهد في طفولتها ويوم تخليت عنها ولم أترفق بها وظلمت نفسها بزواجها ممن لا تحبه، أقدمت على الزواج بدافع الأمومة وقد تحققت لها وكانت حصناً منعها من التمادي في العلاقة بيني وبينها ..

— شعرت بالندم الآن ؟

— حبي لداليا كان أكبر أو هكذا توهمت ..

— وماذا لو استمرت تجربتك مع داليا ؟

— فرض مستحيل !هي أيضاً كانت ضحية وما كان لها أن تتزوج بعد تجربتها الأولى .

— ماذا تقصد بالمفاهيم الخاطئة !

— مفهومنا عن العفة ومدى ارتباطه بغشاء البكارة ! ذلك المفهوم فقدت بسببه أطهر وأنقى من التقيت به، من أحبني بصدق، ناهد عبد الكريم نموذج نادر أن يخلق مثله ..

— وماذا عن داليا ؟ حبك الأول والأخير !

— لم تحبني أبداً، حبي لها كان وهماً كبيراً يعادل مفهومي الخاطئ الذي حرمت بسببه من الحب الحقيقي،

رفضت الارتباط بناهد وتزوجت داليا ومعها من الأولاد اثنان، كلتاهما لم تكن بكراً ..

— الحب لا يرتبط بالبكارة ..

— وليست بالضرورة دليل طهارة، تلك هي المفاهيم التي كنت ضحيتها يا صديقي ...

دأب سليم على السؤال عن داليا وقد ابتعدت عن أولادها مرغمة وعن عملها بعدما لاحظته في نظرات الزملاء والطلاب، لم تستقر حياتها لا في البيت ولا في العمل ولا في المصحة، سؤاله عنها أسعدها كثيراً بعد كل ما حدث، الوحيد الذي أحبها بصدق، حرص على المرور عليها وقد أصبح أديباً نال حظاً من الشهرة وأصبح وجهاً مألوفاً يستوقفه الناس في الشوارع والطرقات، وفي المصحة أيضاً، يستوقفه المرضى والأصحاء حتى الأطباء، يعتز كثيراً بصداقة جلال، في حياتهما شيء مشترك، في الحجرة المقابلة لمكتب الدكتور جلال استوقفه أحد المرضى مبدياً إعجابه وقد وعده سليم بإهدائه مجموعة من أعماله الأدبية، ولتحقيق التواصل بين المرضى وبين المجتمع حرصت الإدارة على تنظيم ندوات ثقافية وأمسيات

شعرية تستضيف فيها عدد من الأدباء والفنانين، يعقب كل ندوة مناقشة لأحدى الأعمال الأدبية، لم يشعر سليم بالاغتراب بين النزلاء بعد أن توطدت العلاقة بينهم، بل شعر أنه واحد منهم .

أُعدت المنصة وبدأت أولى الأمسيات بندوة للقاص والروائي سليم طه بأجمل ما قيل في الحب وسيرة المحبين شعراً ونثراً وكان موضوع الندوة عن الحب الأول والتجربة الأولى والفارق بينهما، ازداد عدد الحضور بشكل غير متوقع فلم يقتصر علي النزلاء وأقاربهم فقط بل امتد ليستقطب عدداً كبيراً من الجمهور عشاق الأدب وقد أدار الندوة الدكتور جلال وعن يمينه جلس سليم وعن يساره مدير المصحة وراح كل صاحب تجربة يتحدث عن تجربته :

كأي فتاة في مرحلة المراهقة تفتحت مشاعري للحب وصار طيف الحبيب يراوحني ويلاحقني، وأنا كذلك لم اكف عن ملاحقته في الخيال، فتي الأحلام بلا ملامح تقريباً، هالة من النور والشوق والحنين وكل معني جميل، تتجسد فيه رؤيتي للحياة، استمرت رؤيتي تلك حتى التحقت بالجامعة وكان بن الجيران يسكن في مواجهتي، لفت نظري بوسامته وحياؤه الشديد وجسده الفارع وثقافته وعمله بل وتنقله بين أعمال شتى، جمالي اللافت شد انتباه كل من رآني حتى أساتذتي في الكلية والطلاب والمعارف وراح أكثرهم يتسابقون

لطلب يدي، رفضتهم جميعاً بما فيهم بن الجيران، كنت اشتاق لرؤيته ولا أعرف حقيقة مشاعري، وفي السنة الأخيرة من الدراسة تودد لي الدكتور عاصم وساعدني كثيراً حتى عُينت معيدة في الكلية، وتقدم لي فوافق الأهل على الفور فمثله لا يمكن رفضه، وتنقلنا في الحياة سنوات ثمانية أنجبنا خلالها ولد وبنت ومن سعادة إلي سعادة تنقلنا وانتقل زوجي للعمل بأحدي دول الخليج وبعد أشهر قليلة توفي في حادث سيارة وعدت به وبقيت مع أولادي سنوات ثلاث عشتها في بيت والدي المواجه لفتي أحلامي، لم يكن قد تزوج بعد وتقدم به العمر، لم اصدق أن لي في قلبه مكان، لم أستطع رفضه وتزوجت للمرة الثانية وانفصلت عنه بعد ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً بالتحديد، وحتى الآن لم أعرف كيف انفصلت عنه وكيف تزوجته، لم أحبه ولم أكرهه، كنت كل شيء في حياته ولم يكن يمثل لي شيئاً ورغم ذلك أعترف بأن هذا الرجل خير من يؤتمن، لم أظلمه لكنه ظلم نفسه بحبه لي وهو في ذلك غير مخير، المرحوم زوجي فجر في جسدي أنوثة لا أعرف من أين أتت! وتركني أعاني تباريح الهوى، اختلط علي الأمر واضطربت حياتي ما بين المرحوم وبين من بقي على قيد الحياة، شيء يحدثني كل ليلة أن لابد من الطلاق حتى أستريح والحق يقال كان زوجي أميناً علي وعلى أولادي، لا أقول ذلك لأني مريضة، يكفي أنه الوحيد الذي يسأل عني حين أهملني

أهلي ومنعوا أولادي من رؤيتي، ومن خلال تجربتي أيقنت أن الحب شيء وتجربة الزواج شيء آخر حتى وإن لم تكن عن حب وبكلمات متقطعة مبللة بالدموع غادرت المنصة

من بين الصفوف تقدمت سيدة رثة الثياب ذات وجه كثير الغضون لها شعر أبيض تكاثف في غير موضع، أربعينية تجعد شعرها في إهمال راحت تتكلم بصعوبة :

مثل كل النساء أحب الحب، سعدت كثيراً بالحب الأول وتجاوبت معه وأعطيته من روحي وبعض جسدي ولكن عند الزواج يفضل الرجال فتاة تشبه الملائكة بلا أخطاء ولا خطايا، كيان متحرك من الفضيلة، تركني لأتزوج من آخر الذي طلقني أيضاً من أجل أخرى رافقته وبجسدها أغوته، أُرهقت نفسياً ولم أعد أتحمل يومي وأنسي غدي، لا أعرف لي مستقبل، أمي كما هي لا تزورني حتى ابنتي تخاف مني، تزوجت من دياب عامل شركة الدخان بعد أن كنت زوجة لمرشد سياحي وأنا خريجة الجامعة، غمرني بحبه وعطفه ولكن الماضي يطاردني وحرماني من ابنتي ضاعف آلامي، ولما ساءت حالتي حبسوني في حجرة بالبيت وأخيراً فضلت أن أكون بينكم نسعد معاً ونتألم معاً، شدة الألم تهذب المشاعر ولقد تألمت كثيراً : دياب .. جزاه الله خيراً، لم يتركني وحملني على المجيء إلى المصحة لتلقي العلاج .

تحدث الدكتور جلال عن تجربته الوحيدة في الحب

والـزواج والمـوت والحيـاة وثـارت أسـئلة آثـر البعـض أن تكـون مكتوبـة ليجيـب عنهـا الأديـب :

لسـنا غربـاء وإن كان البعـض منـا يشـعر بالاغـتراب، جئنا إلى هـذا العـالم مرغمـين ولم يكـن لأحدنـا خيـار في الحيـاة أو المـوت أو الأب أو الأم، حتـى الديـن، لم نخـتره، اعتقدنـا مـا اعتقـده الآبـاء والأجـداد، كنـا ضحايـا القـدر ولـما أدركنـا مـا يـدور حولنا إدراكاً جزئيـاً تصورنـا أن لنـا الخيـار، اخترنـا واحترنـا وتحملنـا نتيجـة اختيارنـا، لم تكـن في صالحنـا في أغلـب الأحيـان، ولكـن حسـبنا أن نختـار، الاختيـار دليـل علـى الحريـة، اخترنـا بقلوبنـا وقليـل مـا نختـار بالعقـل، أكثرنـا كانـت لـه تجربـة في الحـب والـزواج، أمـا عـن الحـب ومـا يسـمي بالحـب الأول فهـو تعبـير غـير دقيـق وغالبـاً مـا يكـون مـن طـرف واحـد يسـعى إلى لقـاء الطـرف الأول بالـزواج وليـس بالضـرورة أن يكـون الـزواج الناتـج عـن الحـب الأول زواجـاً ناجحـاً، الـزواج مـودة ورحمـة وسـكن وحيـاة موصولـة، سـنة الحيـاة والمـوت معـاً، حـالات كثـيرة انتهـت بالطـلاق وأخـرى بالمـوت، الاختيـار لـه أبعـد الأثـر في نجـاح الـزواج، ليـس مـن الضـروري أن يكـون الاختيـار بـين بـدلاء، قـد يختـار القلـب واحـد لا شـريك لـه، يختـاره باسـم الحـب، قـد يسـتمر الـزواج وقـد لا يسـتمر بشـكل درامـي طبقـاً للإحـداث وقـد تمـر حيـاة الإنسـان بمـا يشـبه الميلودرامـا، كأن تظهـر شـخصية أخـرى في حيـاة الـزوج أو الزوجـة تُحـدث تغـيراً جذريـاً مدويـاً كامـرأة أخـرى تدمـر حيـاة الأسـرة ..

من بين الحضور جاء صوت : فعلاً هذا ما حدث معي، امرأة أخرى !

واصل سليم حديثه :

وقد يكون رجلاً دخل قلب امرأة وغيّرها من ناحية زوجها فآثرت الانفصال، يصعب اختراق الزواج من الخارج إلا في حالة واحدة وهي الحب .

ارتفعت الأيادي كل يريد أن يتحدث :

— نعم يا أستاذ، حدثنا عن الحب .

سأتعرض في حديثي عن الحب ولكن دعوني أكمل ما بدأت، حتى في حالة الزواج عن حب قد يأتي الاختراق من الخارج هذا الاختراق ليس من صنع البشر وإنما من صنع القدر كما حدث لصديقي الدكتور جلال ..

التفت الحضور في حيرة : طبيبهم المعالج قاسى الحرمان مثلهم ! يا له من إنسان رائع، كيف استوعب الحدث !

تقدم الدكتور جلال إلى المنصة :

— لم أستوعب في بداية الأمر .

— ألم تتزوج مرة أخرى ؟

— تمنيت الزواج، من يحب يصعب عليه الارتباط إلا بمن أحب، صورته وطيفه وكلامه تظل ملازمة له حتى

بعد الموت، صورة وذكرى وأملاً نقلته لكل من أحب ومن يحتاج لي وآثرت البقاء في المصحة، ليست مصحة ابدأ، أكره هذا الاسم، أرسلت اقتراحاً إلى وزارة الصحة لتغييره إلى دار الأمل، سنحول كل نافذة إلى شباك للأمل ننطلق منه إلى عالم أرحب وأوسع .

واصل سليم طه حديثه :

بإرادتنا سنعبر آلامنا ونخلق أجواءً من السعادة، علينا أن نتقبل أقدارنا ونمتثل لإرادة الله لا لإرادة البشر، قد يخضع أحدنا لإرادة طرف آخر في مسألة كالزواج، أحياناً تطالب الزوجة بالطلاق لأسباب غير منطقية، قد تكون خارجة عن إرادتها لأسباب تتعلق بالحالة النفسية أو ارتباطها بتجربة زواج سابق انتهت نهاية تدخل فيها القدر بقسوة، وهي في هذه الحالة لم تستطع التعايش مع الزوج الثاني، لم تحبه ولم تستطع أن تنفصل بنفسها عن زوجها السابق، تعيش حالة من الفصام بين ماضيها مع زوجها الأول وحاضرها مع زوجها الثاني، في هذه الحالة يكون الانفصال ضرورياً حتى تشعر بالاستقرار النفسي .

— مثلما حدث معي !

— ليست تجربتك وحدك لكنها تجارب كثيرة واجهها الإنسان على مدى تاريخه وما أصابك مقدر سلفاً، ليس بيننا وبين القدر علاقة ثأر، لا أحد يتمنى أن يعيش

تعيساً، كلنا يريد الحد الأقصى من السعادة وعليه أن يسعى، السعادة أن تُحب وأن تحب حتى يتحقق التوازن النفسي والجسدي والروحي، يمكننا أن نحول الألم إلى أمل، إلى طاقة ايجابية تغير حياتنا ونسعد مرة أخرى بالثقافة والوعي، الدكتور جلال معكم وأنا أيضاً يسعدني أن ألتقي بكم بين الحين والآخر ..

ومن عمق القاعة جاء صوت أنثوي شجي يسأل :

- وماذا تفعل المرأة وهي تعيش نصف حياة بعد أن تخلى عنها من أحبته وغدر بها ؟
- متزوجة حضرتك ؟
- نعم، لكني لا أطيقه .
- إن كنت قد أحببت فقد أحب من قبلك الكثير وربما وصل بهم الحب إلى درجة من درجات العشق، الدكتور جلال أحب ربما أكثر من قيس لكن القدر كان له رأي وأنا كذلك أحببت وحال القدر بيني وبين من أُحب، علينا أن نتحمل أقدرانا ونتيجة اختيارنا، فقد أحببت يا سيدتي وتزوجت ممن لا تحبينه، تلمسي السعادة في أشياء أخرى، مؤكد أن زوجك يحاول إسعادك بقدر ما يستطيع، قد تكوني أما لك من الأبناء ما يملأ حياتك سعادة، ليس من الضروري أن نجد السعادة في الحب

فربما ورّثنا الشقاء، ولا تنسي أن التواصل الجسدي فيه من السعادة قدر، أدرك أنه لا يقارب أو يماثل التواصل الروحي، الحب قد يصادف الإنسان مرة وقد لا يصادفه طول العمر، وقبل أن اختم كلمتي أود أن أشير إلى نقطة هامة وهي موضوع ندوتنا : فارق كبير بين الحب الأول والتجربة الثانية عند أحد الأطراف والسعيد من يكون حبه الأول هو حبه الأخير ..

— حدثنا عن الحب كما وعدت .

— الحب هزة في القلب جارحة وحياة في النفس وفضاء تسبح فيه الروح حتى تعانق الحبيب، وإلى كل عاشق أقول : لا تحاول يا صديقي إذا وصل العشق إلى الوريد وامض ما بقي لك من عمر أسير .

استمر التصفيق دقائق وقد أعلن مدير الندوة عن بدء مناقشة رواية نداء القلب للأديب سليم طه ومازالت المناقشة مستمرة في حكايات وروايات يسطرها الواقع يوماً بعد يوم، أحيانا يتفوق الواقع على خيال الأديب، فهل تفوق هذه المرة ؟

★★★

** المؤلف /
محمود محمد السيد
عضو إتحاد كتاب مصر
Ad7amm@yahoo.com
ت / ٠١٢٢٧١٦٧٩٥١

** الأعمال السابقة

(جزيرة الحياة) رواية
(قلبي ومفتاحه) مجموعة
(مواطن للبيع) مجموعة
(الجوع كافر) مجموعة
(خمارة التقوى) رواية
(ثمن الفضيحة) رواية